تفسير سورة التوبة

مدنية

ربع ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ (٢) ﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ ، كما روى البخارى عن أبى إسحاق قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾ [النساء:١٧٦] ، وآخر سورة نزلت براءة (١) .

وإنما لا يبسمل فى أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة فى أولها فى المصحف الإمام، والاقتداء فى ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان،كما روى الترمذى عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال ، وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين ، وقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ووضعتموها فى السبع الطوّل، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتى عليه الزمان وهو يُنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىءُ دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآية فى السورة التى يُذكرْ فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ،ووضعتها فى السبع الطول . رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وابن حبَّان فى صحيحه، والحاكم وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢) .

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ ، لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذُكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم فى ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم ، وبعث أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، أميرًا على الحج تلك السنة، ليقيم للناس مناسكهم ، ويعلم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادى فى الناس ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾، فلما قفل أتبعه بعلى بن أبى طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ، لكونه عَصَبة له .

فقوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: هذه براءة، أى: تبرؤ من الله ورسوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم

---

(١) البخارى (٤٦٥٤) .

(٢) المسند (٣٩٩)، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (٧٨٦)، والترمذى (١٠٨٦)، والنسائى فى الكبرى (٨٠٠٧)، وابن حبان فى الإحسان (٤٤)، والحاكم (٢/ ٣٣٠) .

﴿مِّنَ الْمُشْرِكِينَ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر﴾. اختلف المفسرون ها هنا اختلافا كثيرا، فقال قائلون: هذه الآية لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقَّت فأجله إلى مدته، مهما كان؛لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ الآية [التوبة: ٤] . ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته . وهذا أحسن الأقوال وأقواها ، وقد اختاره ابن جرير، ورُوِى عن غير واحد. وقال ابن عباس فى قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ. فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ قال: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسيحون فى الأرض حيثما شاؤوا، وأجَّل أجَل من ليس له عهد، انسلاخَ الأشهر الحرم، من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم، فذلك خمسون ليلة، فإذا انسلخَ الأشهر الحرم أمره بأن يضع السيف فيمن لا عهد له.وقال الضحاك بعد قوله : فذلك خمسون ليلة: فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد، يقتلهم حتى يدخلوا فى الإسلام. وأمر ممن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلَون من ربيع الآخر، أن يضع فيهم السيف،حتى يدخلوا فى الإسلام .وقال مجاهد : ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى أهل العهد: خزاعة، ومُدْلج، ومن كان له عهد أو غيرهم. أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ، فأراد رسول الله ﷺ الحج، ثم قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون عُرَاة، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك». فأرسل أبا بكر وعلياً، رضى الله عنهما، فطافا بالناس فى ذى المجَاز وبأمكنتهم التى كانوا يتبايعون بها بالمواسم كلها، فآذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر،فهى الأشهر المتواليات : عشرون من ذى الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ، ثم لا عهد لهم ، وآذن الناس كلَّهم بالقتال إلا أن يؤمنوا . وهكذا روى عن السدى، وقتادة.

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) ﴾

يقول تعالى: وإعلام ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وتَقَدُّم وإنذار إلى الناس ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾: وهو يوم النحر الذى هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعا (١) ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أى: برىء منهم أيضا.

ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال:﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ أى: مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى: استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾، بل هو قادر عليكم ، وأنتم فى قبضته، وتحت قهره ومشيئته ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى:فى الدنيا بالخزى والنَّكال، وفى الآخرة بالمقامع والأغلال.

روى البخارى عن أبى هريرة قال:بعثنى أبو بكر فى تلك الحَجَّة فى المُؤذِّنين ، بعثهم يوم

(١) فى المطبوعة : « جميعًا » ، والمثبت من المخطوطة .

النحر، يُؤذِّنون بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان . ثم أردف النبىُّ ﷺ بعلى بن أبى طالب، فأمره أن يُؤذِّن ببراءة. قال أبوهريرة: فأذَّن معنا علىٌّ فى أهل منى يوم النحر ببراءة وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان (١) . ورواه البخارى أيضا عن أبى هريرة قال: بعثنى أبو بكر فيمن يُؤذِّن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفُ بالبيت عُريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: «الأكبر»، من أجل قول الناس: «الحج الأصغر»، فَنَبَذَ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذى حج فيه رسول الله ﷺ مشرك. وهذا لفظ البخارى فى كتاب « الجهاد » (٢) . وروى أحمد عن مُحرِّر بن أبى هريرة،عن أبيه قال:كنت مع على بن أبى طالب، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة بـ« براءة » ، فقال : ما كنتم تنادون ؟ قال : كنا ننادى: ألا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله ـ أو مدته ـ إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله برىء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك . قال: فكنت أنادى حتى صَحِل صوتى(٣) .وروى الإمام أحمد عن زيد بن يُثَيع ـ رجل من هَمْدان : سألنا عليا : بأى شىء بُعثت ؟ يعنى: يوم بعثه النبى ﷺ مع أبى بكر فى الحجة، قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبى ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا . ورواه الترمذى ، وقال: حسن صحيح (٤) .

وقال عطاء : يوم الحج الأكبر، يوم عرفة.

والقول الثانى: أنه يوم النحر. عن علىّ قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وروى عن ابن عباس، وسعيد بن جُبَير ، والزهرى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم أنهم قالوا : يوم الحج الأكبر هو يوم النحر. واختاره ابن جرير. وروى ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبى بكرة ، عن أبيه قال : لما كان ذلك اليوم ، قعد رسول الله ﷺ على بعير له، وأخذ الناس بخطامه ـ أو: زمامه ـ فقال: «أى يوم هذا؟» قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: «أليس هذا يوم الحج الأكبر » . وهذا إسناد صحيح، وأصله مخرج فى الصحيح (٥) .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ (٤) ﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر ، لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت ، فأجله

---

(١) البخارى (٤٦٥٥) . (٢) البخارى (٣١٧٧) .

(٣) المسند (٧٩٦٤)، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٤) المسند (٥٩٤)، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، والترمذى (٣٠٩٢) .

(٥) ابن جرير فى التفسير (١٠/٥٢)، والبخارى (٤٤٠٦)، ومسلم (١٦٧٩/٢٩) .

أربعة أشهر، يسيح فى الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته المضروبة التى عوهد عليها ، وذلك بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحداً، أى: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذى يوفى له بذمته وعهده إلى مدته؛ ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: الموفين بعهدهم.

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾

اختلف المفسرون فى المراد بالأشهر الحرم هاهنا، ما هى؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة فى قوله تعالى: ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ الآية [التوبة:٣٦] ، قاله أبو جعفر الباقر. لكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم فى حقهم المحرم ، وهذا الذى ذهب إليه حكاه على بن أبى طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضاً، وفيه نظر، والذى يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس فى رواية العوفى عنه ، وبه قال مجاهد ، وعمرو بن شعيب وغيرهم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها فى قوله: ﴿ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة : ٢] ، ثم قال: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ ﴾ أى: إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرمنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر؛ ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتى بيان حكمها فى آية أخرى بعد فى هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أى: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال فى الحرم بقوله: ﴿وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] . ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أى: وأسروهم، إن شئتم قتلا، وإن شئتم أسرا ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أى: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار فى معاقلهم وحصونهم، والرصد فى طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولهذا اعتمد الصديق، رضى الله عنه، فى قتال مانعى الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهى الدخول فى الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة، التى هى حق الله، عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التى هى نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهى أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين؛ ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء فى الصحيحين ،عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله

وأن محمداً رسول الله،ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة » (١) الحديث. وعبد الله بن مسعود قال: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يزك فلا صلاة له. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة ، وقال : يرحم الله أبا بكر ، ما كان أفقهه. وروى الإمام أحمد عن أنس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم ». ورواه البخارى، وأهل السنن إلا ابن ماجه(٢).

وهذه الآية الكريمة هى آية السيف التى قال فيها الضحاك بن مُزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبى ﷺ وبين أحد من المشركين ،وكل عهد ، وكل مدة. وقال ابن عباس فى هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة،منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم ، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل أربعة أشهر ، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر. وقال [أيضًا] : أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا فى الإسلام، ونقض ما كان سمى لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول.

ثم اختلف المفسرون فى آية السيف هذه، فقال الضحاك والسدى: هى منسوخة بقوله تعالى: ﴿**فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً**﴾ [محمد:٤]، وقال قتادة بالعكس.

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، ﴿**اسْتَجَارَكَ**﴾ أى: استأمنك ، فأجبه إلى طلبته ﴿**حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ**﴾ أى: القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله ﴿**ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ**﴾ أى : وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ**﴾ أى: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله ، وتنتشر دعوة الله فى عباده. وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية : إنسان يأتيك ليسمع ما تقول وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه، حيث جاء.

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطى الأمان لمن جاءه، مسترشداً أو فى رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومِكْرَز بن حفص، وسهيل ابن عمرو، وغيرهم واحداً بعد واحد، يترددون فى القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام

---

(١) البخارى (٢٥)، ومسلم (٢١/ ٣٤) .

(٢) المسند (٣/ ١٩٩)، والبخارى (٣٩٢)، وأبو داود (٢٦٤١)، والترمذى (٢٦٠٨)، والنسائى (٥٠٠٣) .

المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم. ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: «أتشهد أن مسيلمة رسول الله ؟» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك» (١).

والغرض : أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام فى أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أعطى أماناً ما دام متردداً فى دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه. لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة فى دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان، عن الإمام الشافعى وغيره من العلماء، رحمهم الله.

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) ﴾

يبين تعالى حكمته فى البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أى: أمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعنى يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أى: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذى القعدة فى سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد ومالؤوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوهم معهم فى الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ فى رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم، ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسموا الطلقاء، وكانوا قريبا من ألفين، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير فى الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلا الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) ﴾

---

(١) المسند (٣/ ٤٨٧)، وأبو داود (٢٧٦١)، وصححه الألبانى .

يقول تعالى محرضا للمؤمنين على معاداتهم والتبرى منهم ، ومبينا أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله وكفرهم برسول الله ﷺ ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم ، لم يبقوا ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة. قال ابن عباس: «الإل»: القرابة، و«الذمة»: العهد. وكذا قال الضحاك والسدى . وقال مجاهد: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ﴾ : الله. وفى رواية: لا يرقبون الله ولاغيره. والقول الأول أشهر وأظهر، وعليه الأكثر.

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) ﴾

يقول تعالى ذما للمشركين وحثا للمؤمنين على قتالهم: ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعنى: أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أى: منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾ تقدم تفسيره، وكذا الآية التى بعدها: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ إلى آخرها.

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) ﴾

يقول تعالى: وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم، أى: عهودهم ومواثيقهم ﴿ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أى : عابوه وانتقصوه . ومن هاهنا أخذ قتل من سب الرسول ﷺ ، أو من طعن فى دين الإسلام أو ذكره بنقص ؛ ولهذا قال : ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ أى: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال. وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبى جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، وعدد رجالا . والصحيح أن الآية عامة ، وإن كان سبب نزولها مشركى قريش فهى عامة لهم ولغيرهم ، والله أعلم.

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) ﴾

وهذا أيضا تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ [الأنفال: ٣٠] . وقال تعالى: ﴿يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ الآية [الممتحنة:١]، وقال تعالى: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ الآية [الإسراء: ٧٦] .

وقوله: ﴿وهم بدءوكم أول مرة﴾ : قيل: المراد بذلك يوم بدر ، حين خرجوا لنصر عيرهم ، كما تقدم بسط ذلك . وقيل : المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح ، وكان ما كان ، ولله الحمد والمنة. وقوله: ﴿أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ : يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون، فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي، فبيدي الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن.

ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم. وقال مجاهد، وعكرمة، والسدي : يعني: خزاعة. وأعادوا الضمير في قوله : ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ عليهم أيضا . ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ أي: من عباده ﴿ والله عليم﴾ أي: بما يصلح عباده ﴿حكيم ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبدا، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾

يقول تعالى: ﴿ أم حسبتم﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين، لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ أي: بطانة ودخيلة ، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكتفى بأحد القسمين ، كما قال الشاعر:

وما أدري إذا يممت أرضاً أريد الخير أيهما يليني

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ [العنكبوت : ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾ الآية [آل عمران : ١٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩].

والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد، بين أن له فيه حكمة، وهو اختبار عبيده: من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ما ينبغى للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التى بنيت على اسمه وحده لا شريك له، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر ، أى: بحالهم وقالهم، كما قال السُّدِّى : لو سألت النصرانى: ما دينك؟ لقال: نصرانى، واليهودى: ما دينك؟ لقال يهودى، والصابئى، لقال: صابئ، والمشرك، لقال: مشرك. ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى: بشركهم، ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٣٤]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد.

وقوله: ﴿ وَأَقَامَ الصَّلاةَ ﴾ أى: التى هى أكبر عبادات البدن، ﴿ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ أى: التى هى أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ أى: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه، ﴿ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ قال ابن عباس: أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه ﷺ: ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] وهى الشفاعة، وكل «عسى» فى القرآن فهى واجبة. وقال ابن إسحاق : و«عسى» من الله حق.

ربع ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

عن ابن عباس قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ. مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧] يعنى: أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال: ﴿ بِهِ سَامِرًا ﴾، كانوا يسمرون به، ويهجرون القرآن والنبى ﷺ ، فخير الله الإيمان والجهاد مع النبى ﷺ ،على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به ، وإن كانوا يعمرون بيته ويحرمون به .

قال الله تعالى : ﴿ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يعنى: الذين زعموا أنهم أهل العمارة ، فسماهم الله «ظالمين» بشركهم ، فلم تغن عنهم العمارة شيئاً. روى مسلم وابن جرير ـ واللفظ له ـ عن النعمان بن بشير الأنصارى قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالى ألا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام. وقال آخر: بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم. فزجرهم عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ـ وذلك يوم الجمعة ـ ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل، فأنزل الله، عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

أمر تعالى بمباينة الكفار به ، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إن ﴿اسْتَحَبُّوا﴾ أى: اختاروا الكفر على الإيمان ، وتوعد على ذلك كقوله تعالى : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد فى سبيله، فقال: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أى: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ أى: تحبونها لطيبها وحسنها، أى: إن كانت هذه الأشياء ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أى: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. وروى الإمام أحمد عن زُهْرَة بن مَعْبَد، عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله لأنت يارسول الله أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلى من نفسى. فقال رسول الله: «الآن ياعمر». انفرد بإخراجه البخارى (٢) . وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفسى بيده، لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(٣).

---

(١) مسلم (١٨٧٩/١١١)، وابن جرير فى التفسير (١٠/٦٧) .

(٢) المسند (٤/٣٣٦)، والبخارى (٦٦٣٢) . (٣) البخارى (١٤) .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ
فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ
﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن
يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم فى نصره إياهم فى مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره ، لا بعَدَدهم ، ولا بعُددهم ونبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ. ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

وقد كانت وقعة: «حُنين» بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة ، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْرى، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جُشم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بنى هلال، وهم قليل، وناس من بنى عمرو بن عامر، وعوف ابن عامر، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنَّعَم، وجاؤوا بِقَضِّهم وقَضِيضِهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ فى جيشه الذى جاء معه للفتح ، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء فى ألفين أيضا، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له «حنين»، فكانت فيه الوقعة فى أول النهار فى غلس الصبح، انحدروا فى الوادى وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم ، ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم. فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين، كما قال الله، عز وجل ، وثبت رسول الله ﷺ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر، يثقلانها لئلا تسرع السير، وهو ينوه باسمه، عليه الصلاة والسلام، ويدعو المسلمين إلى الرجعة [ويقول] : « أين ياعباد الله؟ إلىَّ أنا رسول الله»، ويقول فى تلك الحال:

« أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب »

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ، ثم أمر ﷺ عمه العباس ـ وكان جهير الصوت ـ أن ينادى بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة ـ يعنى شجرة بيعة الرضوان، التى بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألا يفروا عنه ـ فجعل ينادى بهم: يا أصحاب السمرة ،

ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة ، فجعلوا يقولون : يالبيك ، يالبيك ، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعون إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع، لبس درعه ، ثم انحدر عنه ، وأرسله ، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ . فلما رجعت شرذمة منهم، أمرهم ، عليه السلام ، أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره ، وقال : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى » ثم رمى القوم بها ، فما بقى إنسان منهم إلا أصابه منها فى عينه وفمه ما شغله عن القتال ، ثم انهزموا ، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجندلة بين يدى رسول الله ﷺ.

وفى الصحيحين عن البراء بن عازب، أنه قال له رجل: يا أبا عمارة ،أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين، فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفرّ، إن هوازن كانوا قوماً رُمَاة، فلما لقيناهم وحَمَلنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وهو يقول:

« أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب » (١)

قلت: وهذا فى غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه فى مثل هذا اليوم فى حَومة الوَغَى، وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجرى،ولا تصلح لكرٍّ ولا لفرٍّ ولا لهرب ، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوِّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلاً عليه، وعلماً منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ**﴾ أى: طمأنينته وثباته على رسوله ، ﴿**وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أى: الذين معه ﴿**وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا**﴾ وهم الملائكة .

وروى الحافظ أبو بكر البيهقى عن ابن مسعود : كنت مع رسول الله ﷺ يوم حُنين، فولى عنه الناس، وبقيتُ معه فى ثمانين رجـلا من المهاجرين والأنصار، قدمنا ولـم نولهـم الدبـر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة. قال: ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضى قُدُما، فحادَت بغلته، فمال عن السرج، فقلت: ارتفـع رفعـك الله. قال: «ناولنى كفاً من التراب». فناولته، قال: فضرب به وجوههم، فامتلأت أعينهم تراباً، قال: «أين المهاجرون والأنصار ؟ » قلت: هم هناك. قال: « اهتف بهم » . فهتفت ، فجاؤوا وسيوفهم بأيمانهم، كأنها الشهب ، وولى المشركون أدبارهم. ورواه الإمام أحمد نحوه (٢) .

قال جُبير بن مطعم : إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين، والناس يقتتلون، إذ نظرت إلى

---

(١) البخارى (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦/٧٨) .

(٢) البيهقى فى دلائل النبوة (٥/١٤٢)، وهو فى المسند (٤٣٣٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

مثل البِجَاد الأسود يهوى من السماء، حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور قد ملأ الوادى، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة. وقال سعيد بن السائب بن يسار، عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السُّوائى ـ وكان شهد حنينا مع المشركين ثم أسلم بعد ـ فكنا نسأله عن الرعب الذى ألقى الله فى قلوب المشركين يوم حنين، فكان يأخذ الحصاة فيرمى بها فى الطَّسْت فيطنّ ، فيقول : كنا نجد فى أجوافنا مثل هذا. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم » (١) .

ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ (٢) اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعِرَّانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما، فعند ذلك خيَّرهم بين سبيهم وبين الأموال ، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبى وامرأة، فرده عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناسا من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائةً مائةً من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائةً مالك بن عوف النَّصْرى، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التى يقول فيها:

مَا إنْ رَأيتُ ولا سَمِعْتُ بمِثْلِه ... فى النَّاس كلِّهم بمثل مُحَمَّد

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفى المشركين، الذين هم نَجَس ديناً، عن المسجد الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها فى سنة تسع؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًا صُحبة أبى بكر، رضى الله عنهما، عامئذ، وأمره أن ينادى فى المشركين: « ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان (٣) . فأتم الله ذلك، وحكم به شرعا وقدراً. وقال الإمام الأوزاعى: كتب عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين ، وأتبع نهيه قول الله : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. وقال عطاء: الحرم كله مسجد، لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.

---

(١) مسلم (٥٢٣) . (٢) فى المخطوطة : « فأنزل »، وهو خطأ واضح .

(٣) البخارى (١٦٢٢)، ومسلم (١٣٤٧/ ٤٣٥) .

ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد فى الصحيح: «المؤمن لا ينجس» (١). وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾: قال ابن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا: لتنقطعَنَّ عنا الأسواق، ولتهلكن التجارة ، وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق ، فأنزل الله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ من وجه غير ذلك ﴿ إِن شَاءَ ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أى: هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله مما قطع عنهم من أمر الشرك، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب، من الجزية. وهكذا رُوى عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة والضحاك، وغيرهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أى: بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ أى:فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه الكامل فى أفعاله وأقواله، العادل فى خلقه وأمره، تبارك وتعالى؛ ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التى يأخذونها من أهل الذمة، فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، فهم فى نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ، ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانا صحيحا لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ، لأن جميع الأنبياء بشروا به،وأمروا باتباعه،فلما جاء وكفروا به،وهو أشرف الرسل،عُلِم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء،وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم؛ ولهذا قال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ .

وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب ، بعد ما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس فى دين الله أفواجا، واستقامت جزيرة العرب ، أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك فى سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فَأَوْعَبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحوًا من ثلاثين ألفًا ، وتخلف بعضُ الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك فى عام جَدْب ، ووقت قَيْظ وحر ، وخرج ، عليه السلام ، يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك، فنزل بها وأقام على مائها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله فى الرجوع، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس، كما سيأتى بيانه بعد إن شاء الله.

وقد استدلَّ بهذه الآية الكريمة مَن يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، أو من

---

(١) البخارى (٢٨٣) .

أشبههم كالمجوس، لما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر . وهذا مذهب الشافعى، وأحمد ـ فى المشهور عنه ـ وقال أبو حنيفة : بل تؤخذ من جميع الأعاجم ، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب. وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابىٍّ، ومجوسى، ووثنى، وغير ذلك، ولمأخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أى: إن لم يسلموا ﴿عَن يَدٍ﴾ أى: عن قهر لهم وغلبة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أى: ذليلون حقيرون مهانون. فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صَغَرَة أشقياء ، كما جاء فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ قال : « لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه » (١) .ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تلك الشروط المعروفة فى إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ، من رواية عبد الرحمن بن غَنْم الأشعرى قال: كتبت لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى من أهل الشام:

« بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا ، وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نُحدثَ فى مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قِلاية ولا صَوْمَعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها ، ولا نحيى منها ما كان خططًا للمسلمين، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين فى ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ننزل من رأينا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوى فى كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركا، ولا ندعو إليه أحداً؛ ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول فى الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم فى شىء من ملابسهم، فى قلنسوة ، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نكتنى بكُنَاهم ، ولا نركب السروج ، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئا من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجز مقاديم رؤوسنا، وأن نلزم زِينا حيثما كنا ، وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وألا نظهر الصليب على كنائسنا، وألا نظهر صلبنا ولا كتبنا فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا فى كنائسنا إلا ضربا خفيا، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شىء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين ولا بعوثاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين، ولا نطلع عليهم فى منازلهم » .قال : فلما أتيت عمر بالكتاب ، زاد فيه : « ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا

---

(١) مسلم (٢١٦٧/١٣) .

لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا ، وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا فى شىء مما شرطناه لكم وَوَظَفْنا على أنفسنا، فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق » .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة، والفرْية على الله تعالى، فأما اليهود فقالوا فى العُزَير: «إنه ابن الله»، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وأما ضَلاَل النصارى فى المسيح فظاهر ؛ ولهذا كذَّب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أى: لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ أى: يشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أى: من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ؟ أى: كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل ؟

وقوله : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾: روى الإمام أحمد، والترمذى ، عن عدى بن حاتم ، أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فَرَّ إلى الشام، وكان قد تنصر فى الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، فرغَّبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ، فتقدم عَدِىّ إلى المدينة،وكان رئيسا فى قومه طيئ، وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم ، فتحدَّث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنق عَدىّ صليب من فضة ، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾. قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال : « بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » . وقال رسول الله ﷺ : « يا عدى، ما تقول ؟ أيُفرّك أن يقال: الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يُفرك؟ أيفرّك أن يقال : لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله إلا الله»؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم ، وشهد شهادة الحق، قال : فلقد رأيتُ وجهه استبشر ثم قال: « إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون » (١) .وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهما فى تفسير: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ :إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

---

(١) المسند (٤/٣٧٨)، والترمذى (٣٠٩٥)، وقال : « غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب ، وغطيف بن أعين ليس بمعروف فى الحديث » ، وصححه الألبانى. و« يفرك » أى : يحملك على الفرار .

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أى: الذى إذا حرم الشىء فهو الحرام، وما حلله حلّ، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٣٢) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أى: ما بعث به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. والكافر: هو الذى يستر الشىء ويغطيه، ومنه سمى الليل «كافرا»؛ لأنه يستر الأشياء.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾: فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع ودين الحق: هى الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة فى الدنيا والآخرة ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى: على سائر الأديان، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زَوَى لى الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتى ما زُوى لى منها» (١). وروى الإمام أحمد عن تميم الدارى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين، بعزِّ عَزيز، أو بذُلِّ ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام، وذُلا يذل الله به الكفر»، فكان تميم الدارى يقول: قد عرفت ذلك فى أهل بيتى، لقد أصاب من أسلم منهم الخيرَ والشرفَ والعزَّ، ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية (٢). وروى مسلم عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعْبَد اللاتُ والعُزّى». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله، عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ المشركون﴾ أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، عز وجل، ثم يبعث الله ريحا طيبة، [فيتوفى كلّ من كان فى قلبه مثقال حبَّة خردل من إيمان]، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم» (٣).

---

(١) مسلم (٢٨٨٩/١٩).

(٢) المسند (١٠٣/٤)، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٤/٦): «رجال أحمد رجال الصحيح».

(٣) مسلم (٢٩٠٧/٥٢)، وما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة الأزهرية، والمثبت من المطبوعة وصحيح مسلم.

ربع ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾

قال السدى: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى. وهو كما قال، فإن الأحبار هم علماء اليهود، كما قال تعالى: **﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾** [المائدة:٦٣]، والرهبان: عباد النصارى، والقسيسون: علماؤهم، كما قال تعالى: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾** [المائدة: ٨٢]. والمقصود: التحذير من علماء السوء وعُبَّاد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شبه من النصارى. وفى الحديث الصحيح: «لتركبنّ سَنَن من كان قبلكم حَذْو القُذّة بالقُذّة». قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». وفى روايه: فارس والروم؟ قال: «وَمَن الناس إلا هؤلاء؟» (١).

والحاصل: التحذير من التشبه بهم فى أحوالهم وأقوالهم؛ ولهذا قال تعالى: **﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾** وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم فى الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خَرْج وهدايا وضرائب تجىء إليهم، فلما بعث الله رسول ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها، وعوضهم بالذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله.

وقوله تعالى: **﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾** أى: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويُلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون.

وقوله: **﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**: هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العُبَّاد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال بعضهم:

وَهَل أفْسَدَ الدِّينَ إلاَّ المُلُوكُ ... وأحبارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُها؟

وأما الكنز: فقال ابن عمر: هو المال الذى لا تؤدى منه الزكاة. وقال أيضًا: ما أُدِّى زكاتُه فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهرا لا تؤدى زكاته فهو كنز.

---

(١) البخارى (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩/٦).

وروى البخارى عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر، فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طُهراً للأموال (١) . وكذا قال عمر بن عبد العزيز، وعِراك ابن مالك: نسخها قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] .وروى الإمام أحمد عن ثوبان قال : لما نزل فى الفضة والذهب ما نزل قالوا: فأى المال نتخذ؟ قال [عمر: أنا أعلم ذلك لكم فأوضع على بعير فأدركه، وأنا فى أثره، فقال: يا رسول الله، أى المال نتخذ؟ قال] : «ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة تعين أحدكم فى أمر الآخرة ». ورواه الترمذى ، وابن ماجة ، وقال الترمذى : حسن (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أى : يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما، كما فى قوله : ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩] أى: هذا بذاك، وهو الذى كنتم تكنزون لأنفسكم؛ ولهذا يقال: من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله، عُذب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم، عذبوا بها، كما كان أبو لهب، لعنه الله، جاهدًا فى عداوة رسول الله ﷺ ، وامرأته تعينه فى ذلك، كانت يوم القيامة عونًا على عذابه أيضا ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أى : عنقها ﴿ حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد : ٥] أى: تجمع من الحطب فى النار وتلقى عليه ، ليكون ذلك أبلغ فى عذابه ممن هو أشفق عليه فى الدنيا ، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها ، كانت أضر الأشياء عليهم فى الدار الآخرة، فيحمى عليها فى نار جهنم،وناهيك بحرها، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.قال عبد الله بن مسعود : والله الذى لا إله غيره، لا يكوى عبد بكنز، فيمس دينار ديناراً، ولا درهم درهما، ولكن يوسَّع جلده، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل يوم القيامة صفائح من نار يكوى بها جنبه وجبهته وظهره، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس، ثم يُرَى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وذكر تمام الحديث (٣) . وروى البخارى عن أبى ذر قال : كنا بالشام ، فقرأت : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فقال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا فى أهل الكتاب. قال: قلت: إنها لفينا وفيهم (٤) .

قلت: كان من مذهب أبى ذر تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال ، وكان يفتى بذلك ، ويحثهم عليه، ويأمرهم به، ويغلظ فى خلافه . فنهاه معاوية فلم ينته ، فخشى أن يضر بالناس

---

(١) البخارى (١٤٠٤) .

(٢) المسند (٥/٢٨٢)، والترمذى (٣٠٩٤) ، وقال : « حسن » ، وابن ماجه (١٨٥٦) .

(٣) مسلم (٩٨٧/٢٦) . (٤) البخارى (٤٦٦٠) .

فى هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالربذة وحده، وبها مات فى خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية ، وهو عنده، هل يوافق عمله قوله؟ فبعث إليه بألف دينار، ففرقها من يومه، ثم بعث إليه الذى أتاه بها فقال: إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك فأخطأت ، فهات الذهب ! فقال: ويحك! إنها خرجت، ولكن إذا جاء مالى حاسبناك به .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر : « ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبا يمر عليه ثالثة وعندى منه شىء ، إلا دينار أرصده لدين » (١) . فهذا ـ والله أعلم ـ هو الذى حدا أبا ذر على القول بهذا.

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٦) ﴾

روى الإمام أحمد عن أبى بكْرة ، أن النبى ﷺ خطب فى حجته، فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مُضَر الذى بين جُمادى وشعبان » . الحديث. ورواه البخارى ومسلم (٢). وقال ابن عباس فى قوله: ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ قال : محرم ، ورجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة.

وقوله ﷺ فى الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » تقرير منه ﷺ وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى فى أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسىء ولا تبديل .

فصل : ذكر الشيخ علم الدين السَّخاوى فى جزء جمعه سماه « المشهور فى أسماء الأيام والشهور»: أن المحرم سمى بذلك لكونه شهراً محرماً، وعندى أنه سمى بذلك تأكيداً لتحريمه؛ لأن العرب كانت تَتَقلب به، فتحله عاماً وتحرمه عاماً.

صفر : سمى بذلك لخلو بيوتهم منه ، حين يخرجون للقتال والأسفار ، يقال : « صَفِرَ المكان»: إذا خلا .

شهر ربيع أول: سمى بذلك لارتباعهم فيه. والارتباع الإقامة فى عمارة الرَّبع .

ربيع الآخر: كالأول.

جُمادى: سمى بذلك لجمود الماء فيه .

---

(١) البخارى (٦٤٤٤) .

(٢) المسند (٥/٣٧) ، والبخارى (٤٦٦٢)، ومسلم (١٦٧٩/٢٩) .

رجب: من الترجيب، وهو التعظيم .

شعبان: من تشعب القبائل وتفرقها للغارة .

رمضان: من شدة الرمضاء ، وهو الحر، يقال: « رمضَت الفصال » : إذا عطشت ، وقول من قال: «إنه اسم من أسماء الله»؛ خطأ لايعرج عليه، ولا يلتفت إليه.

شوال: من شالت الإبل بأذنابها للطّراق .

القعدة: بفتح القاف ـ قلت: وكسرها ـ لقعودهم فيه عن القتال والترحال .

الحجة: بكسر الحاء ـ قلت: وفتحها ـ سمى بذلك لإيقاعهم الحج فيه .

وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ : فهذا مما كانت العرب أيضا فى الجاهلية تحرمه ، وهو الذى كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: « البَسْل»، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر، تعمقا وتشديداً.

وأما قوله: «ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان »، فإنما أضافه إلى مضر، ليبين صحة قولهم فى رجب أنه الشهر الذى بين جمادى وشعبان ، لا كما كانت تظنه ربيعة من أنَّ رجب المحرم هو الشهر الذى بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سَرْدٌ وواحد فرد؛ لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل شهر الحج شهر، وهو ذو القعدة؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحُرِّم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر، وهو المحرم؛ليرجعوا فيه إلى نائى أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب فى وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتمار به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا .

وقوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم ، والحَذْو بها على ما سبق فى كتاب الله الأول ﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ أى : فى هذه الأشهر المحرمة؛ لأنه آكد وأبلغ فى الإثم من غيرها، كما أن المعاصى فى البلد الحرام تضاعف ، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] ، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام؛ ولهذا تغلظ فيه الدية فى مذهب الشافعى، وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا فى حَقِّ من قتل فى الحرم أو قتل ذا محرم. وقال ابن عباس : قوله : ﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾: فى كلِّهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما، وعَظَّم حُرُماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم. وقال قتادة إن الظلم فى الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرًا، من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيما، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء. قال: إن الله اصطفى صَفَايا من خلقه، اصطفى من

الملائكة رسلا ، ومن الناس رسلا ، واصطفى من الكلام ذكْرَه، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالى ليلة القدر، فعَظِّموا ما عظم الله، فإنما تُعَظَم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل. وقال ابن إسحاق : ﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُم ﴾ أى : لا تجعلوا حرامها حلالا ولا حلالها حراما، كما فعل أهل الشرك، فإنما النسىء الذى كانوا يصنعون من ذلك، زيادة فى الكفر﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [التوبة: ٣٧] . وهذا القول اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ أى: جميعكم ﴿ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ أى: جميعهم، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ . وقد اختلف العلماء فى تحريم ابتداء القتال فى الشهر الحرام: هل هو منسوخ أو محكم ؟ على قولين : **أحدهما ـ وهو الأشهر**: أنه منسوخ .

وأما قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه حكم مستأنف، ويكون من باب التهييج والتحضيض، أى: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضا لهم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين فى الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم ، كما قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ الآية [البقرة: ١٩١] .

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم فى شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضَبِية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة فى التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام ، ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة .قال ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾: النسىء أنَّ جنُادة بن عوف بن أمية الكنانى، كان يوافى الموسم فى كل عام، وكان يكنى «أبا ثُمامة»، فينادى: ألا إن أبا ثمامة لا يُحاب ولا يُعاب، ألا وإن صفر العام الأول حلال. فيحله للناس، فيحرم صفرا عاما، ويحرم المحرم عاما، فذلك قول الله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ ، يقول: يتركون المحرم عاما، وعاما يحرمونه. وقال مجاهد، كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له، فيقول: يأيها الناس، إنى لا أعاب ولا أحاب، ولا مَرَدّ لما أقول، إنا قد حَرَّمنا المحرم، وأخرنا صفر. ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول : إنا قد حرمنا صفر ، وأخرنا

المحرم» فهو قوله: ﴿ لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ قال: يعنى الأربعة﴿ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ لتأخير هذا الشهر الحرام. فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاما يحرمون عوضه صفر، وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم فى العام القابل يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه ، وبعده صفر ، وربيع وربيع إلى آخرها فيحلونه عاما ويحرمونه عاما ؛ ليوطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله، أى: فى تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم، وتارة ينسئونه إلى صفر، أى: يؤخرونه. وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر»، أى: أن الأمر فى عدة الشهور وتحريم ما هو محرم منها، على ما سبق فى كتاب الله من العدد والتوالى، لا كما يعتمده جهلة العرب، من فصلهم تحريم بعضها بالنسيء عن بعض، والله أعلم.

وقال ابن إسحاق : كان أول من نسأ الشهور على العرب، فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله، عز وجل، «القَلَمَّس» وهو حذيفة بن عبد فُقَيم ، ثم قام بعده على ذلك ابنه عَبَّاد ، ثم من بعد عباد ابنه قَلَعَ بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبوثمامة جُنَادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام. فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً، فحرم رجبا، وذا القعدة، وذا الحجة، ويحل المحرم عاما، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عاما ليواطئ عدة ما حرم الله، فيحل ما حرم الله، يعنى: ويحرم ما أحل الله ، والله أعلم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾

هذا شروع فى عتاب من تخلَّف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال فى شدة الحر وحَمَارَّة القيظ، فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: إذا دعيتم إلى الجهاد فى سبيل الله ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ أى: تكاسلتم وملتم إلى المقام فى الدعة والخفض وطيب الثمار ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ ؟ أى : ما لكم فعلتم هكذا أرضاً منكم بالدنيا بدلا من الآخرة ؟

ثم زهد تبارك وتعالى فى الدنيا، ورغب فى الآخرة، فقال: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ ، كما روى الإمام أحمد عن المستَوْرِد أخى بنى فِهْر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم، فلينظر بم ترجع». وأشار بالسبابة. انفرد

بإخراجه مسلم (١) . وروى ابن أبى حاتم عن أبى عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة، سمعت من إخوانى بالبصرة أنك تقول: سمعت نبى الله يقول : « إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة » قال أبو هريرة: بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يجزى بالحسنة ألفى ألف حسنة»، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (٢) ، فالدنيا ما مضى منها وما بقى منها عند الله قليل . ولما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاةُ قال: ائتونى بكفنى الذى أكفن فيه، أنظر إليه . فلما وضع بين يديه نَظَر إليه فقال: أمَا لى من كَبِير ما أخلّف من الدنيا إلا هذا ؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول : أفٍّ لك من دار. إن كان كثيرُك لقليل ، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفى غرور.

ثم توعد تعالى على ترك الجهاد فقال : ﴿ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب، فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القَطْر فكان عذابهم ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أى: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد:٣٨]. ﴿وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أى: ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونُكُولكم وتثاقلكم عنه ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ﴾ أى: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ أى: عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هارباً صحبة صدِّيقه وصاحبه أبى بكر بن أبى قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطَّلَبُ الذين خرجوا فى آثارهم، ثم يسيروا نحو المدينة، فجعل أبوبكر يجزع أن يَطَّلع عليهم ، فيخلص إلى الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، منهم أذى ، فجعل النبى ﷺ يُسكِّنه ويثبِّتُه ويقول: «يا أبا بكر، ماظنك باثنين الله ثالثهما»، كما روى الإمام أحمد عن أبى بكر قال : قلت للنبى ﷺ ، ونحن فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه . قال : فقال : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما » أخرجاه فى الصحيحين (٣).

---

(١) المسند (٤/ ٢٢٨) ، ومسلم (٢٨٥٨/ ٥٥) .

(٢) مضى تخريجه عند الآية (٢٤٣) من سورة البقرة .

(٣) المسند (١١) ، والبخارى (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١/ ١) .

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أى: تأييده ونصره عليه، أى: على الرسول فى أشهر القولين: وقيل: على أبى بكر، ورُوِى عن ابن عباس وغيره، قالوا: لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينة، وهذا لا ينافى تجدد سكينة خاصة بتلك الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أى: الملائكة ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾. قال ابن عباس: يعنى ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: الشرك ، و﴿كَلِمَةُ اللَّهِ﴾ هى: لا إله إلا الله. وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى ، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حَمِيَّة، ويقاتل رياء، أىّ ذلك فى سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» (١) .

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أى: فى انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، لا يُضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أقواله وأفعاله.

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)﴾

أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتَّم على المؤمنين فى الخروج معه على كل حال فى المَنْشَط والمَكْرَه والعسر واليسر، فقال: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾. وقال أبو طلحة: كهولا وشَبَابا ، ما سمع الله عَذَر أحد ، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتل. وفى رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة ، فأتى على هذه الآية: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال: أرى ربنا يستنفرنا شيوخاً وشَبَابا،جهزونى يا بنىَّ. فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبى بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه بها . وهكذا روى عن ابن عباس وعكْرِمة والحسن البصرى وغير واحد أنهم قالوا فى تفسير هذه الآية: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ : كهولا وشبابا . وكذا قال عكرمة والضحاك، ومقاتل ابن حيان، وغير واحد. وقال مجاهد: شبابا وشيوخا ، وأغنياء ومساكين . وقال الحكم بن عُتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل. وقال الحسن البصرى أيضاً : فى العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم فى الآية ، وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام الأوزاعى: إذا كان النفير إلى دُروب الروم نفرَ الناس إليها خفافا وركبانا، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافا وثقالا، وركبانا ومشاة. وهذا تفصيل فى المسألة. وقال السدى قوله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول : غنيا وفقيرا ، وقوياً وضعيفاً ، فجاءه رجل يومئذ ، زعموا أنه المقداد، وكان عظيما سميناً، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فأبى فنزلت يومئذ : ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس ، فنسخها الله ، فقال :

---

(١) البخارى (٢٨١٠) ، ومسلم (١٩٠٤/ ١٥٠) .

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٩١] . وقال أبو راشد الحُبْرانى : وافيت المقداد ابن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عظَمه، يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك ، فقال: أتت علينا سورة « البعوث » : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ .

ثم رغب تعالى فى النفقة فى سبيله ، وبذل المهج فى مرضاته ومرضاة رسوله ، فقال : ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى: هذا خير لكم فى الدنيا والآخرة، ولأنكم تغرمون فى النفقة قليلا، فيغنمكم الله أموال عدوكم فى الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة فى الآخرة، كما قال النبى ﷺ: « وتكفَّل الله للمجاهد فى سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله نائلا ما نال من أجر أو غنيمة » (١) .ولهذا قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾

يقول تعالى موبِّخاً للذين تخلفوا عن النبى ﷺ فى غزوة تبوك، وقعدوا بعد ما استأذنوه فى ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أى: قريباً أيضا ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ أى: لكانوا جاؤوا معك لذلك ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أى: المسافة إلى الشام ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أى: لكم إذا رجعتم إليهم ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أى: لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ﴾

عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بَدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ . وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التى فى سورة النور، فرخَّص له فى أن يأذن لهم إن شاء: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور : ٦٢] . وقال

(١) البخارى (٧٤٦٣)، ومسلم (١٨٧٦/ ١٠٤) .

مجاهد : نزلت هذه الآية فى أناس قالوا : استأذنُوا رسول الله ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا . ولهذا قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أى: فى إبداء الأعذار ﴿وتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم فى القعود، لتعلم الصادق منهم فى إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه. ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه فى القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: ﴿لا يَسْتَئْذِنُكَ﴾ أى: فى القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة ، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ. إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ ﴾ أى: فى القعود ممن لا عذر له ﴿ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أى: لا يرجون ثواب الله فى الدار الآخرة على أعمالهم ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: شكت فى صحة ماجئتهم به ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أى: يتحيرون، يُقدِّمون رجلا ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة فى شىء، فهم قوم حَيارى هَلْكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا .

ربع ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ أى: معك إلى الغزو ﴿لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أى: لكانوا تأهبوا له ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ أى: أبغض أن يخرجوا معكم قَدراً ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أى : أخرهم ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أى: قدراً.

ثم بين الله تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ أى: لأنهم جبناء مخذولون ﴿ولأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أى: ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أى: مطيعون لهم ومستحيبون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدى إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير. وقال مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن جرير: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أى: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم. وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم، بل هذا عام فى جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر فى المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين. وقال ابن إسحاق: كان الذين استأذنوا ـ فيما بلغنى من ذوى الشرف منهم: عبد الله بن أبى ابن سلول والجدُّ بن قيس، وكانوا أشرافاً فى قومهم، فثبطهم الله، لعلمه بهم: أن يخرجوا معه ، فيفسدوا عليه جنده . وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم، فقال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ .

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾، فأخبر بأنه يعلم ما كان ، وما

يكون ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ ، فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا. وَإِذًا لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا. وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨]، والآيات فى هذا كثيرة.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨)﴾

يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾ أى: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم فى كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبى ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبى وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه. فدخلوا فى الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿ائْذَن لِّي﴾ فى القعود ﴿وَلا تَفْتِنِّي﴾ بالخروج معك، بسبب الجوارى من نساء الروم، قال الله تعالى: ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أى: قد سقطوا فى الفتنة بقولهم هذا، كما روى ابن إسحاق، عن الزهرى، ويزيد بن رُومان، وعبد الله ابن أبى بكر، وعاصم بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم، وهو فى جهازه، للجَدِّ بن قيس أخى بنى سلمة: «هل لك يا جَدُّ العامَ فى جلاد بنى الأصفر ؟» فقال: يا رسول الله، أو تأذن لى ولا تفتنى، فوالله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجباً بالنساء منى، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك». ففى الجد بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي﴾ الآية، أى: إن كان إنما يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم. وهكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت فى الجَدِّ بن قيس. وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بنى سلمة، وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بنى سلمة ؟» قالوا: الجد بن قيس، على أنا نُبَخِّله. فقال رسول الله ﷺ: «وأىّ داء أدوأ من البخل، ولكن سيِّدكم الفتى الجَعْد

الأبيض بشرُ بن البراء بن مَعْرُور »(١) .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى: لا مَحيد لهم عنها، ولا مَحيص، ولا مَهرَب.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)﴾

يعلم تبارك وتعالى نبيه بعداوة هؤلاء له ؛ لأنه مهما أصابه من ﴿حَسَنَةٌ﴾ أى: فتح ونصر وظفر على الأعداء، مما يسره ويسر أصحابه، ساءهم ذلك ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أى: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾. فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم فى عداوتهم هذه التامة، فقال: ﴿قُل﴾ أى: لهم ﴿لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أى: نحن تحت مشيئة الله، وقدره ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أى: سيدنا وملجؤنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤)﴾

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا ﴾ أى : تنتظرون بنا ﴿ إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾: شهادَة أو ظَفَرٌ بكم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ أى: ننتظر بكم هذا أو هذا، إما ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ بسبى أو بقتل ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى: مهما انفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿لأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ أى: والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أى: ليس لهم قصد صحيح، ولا همة فى العمل ﴿وَلا يُنفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾. وقد أخبر الصادق المصدوق أن الله لا يمل حتى تَمَلُّوا ، وأنه طيب لا يقبل إلا طيباً؛ فلهذا لا يتقبل الله من هؤلاءنفقة ولا عملا، لأنه إنما يتقبل من المتقين.

(١) البخارى (١٧٨/٥ فتح) .

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ فلا تُعجبْكَ أموالُهمْ ولا أولادُهم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَكَ إلى مَا مَتَّعْنَا به أزْوَاجًا منهُمْ زهرةَ الحياة الدُّنْيَا لنفتنهُمْ فيه ورزْقُ ربِّكَ خيرٌ وأَبْقَى﴾ [طه : ١٣١] ، وقال : ﴿أيَحْسَبُونَ أنَّمَا نمدُّهُم به من مَّال وبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ في الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] .

وقوله: ﴿إنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: قال الحسن البصرى: بزكاتها، والنفقة منها فى سبيل الله. واختاره ابن جرير ، وهو القول القوى الحسن. وقوله: ﴿وتَزْهَقَ أنفُسُهُمْ وهُمْ كَافِرُونَ﴾ أى: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم، عياذاً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿يَحْلِفُونَ باللَّه إنَّهُمْ لَمنكُمْ﴾ يميناً مؤكدة ﴿ ومَا هُم مِّنكُمْ ﴾ أى : فى نفس الأمر ﴿ ولَكنَّهُمْ قَوْمٌ يفْرَقُون ﴾ أى : فهو الذى حملهم على الحلف. ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ أى: حصنا يتحصنون به ، وحرزا يتحرزون به ، ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ وهى التى فى الجبال ﴿أَوْ مُدَّخَلاً ﴾ وهو السَّرَب فى الأرض والنفَق. قال ذلك فى الثلاثة ابنُ عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿لَوَلَّوْا إلَيْه وهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أى: يسرعون فى ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام؛ ولهذا لا يزالون فى هم وحزن وغَمٍّ؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال فى عزٍّ ونصر ورفعة .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ومنْهُم﴾ أى ومن المنافقين ﴿مَن يَلْمِزُكَ ﴾ أى: يعيب عليك ﴿فِي﴾ قَسْم ﴿الصَّدَقَات﴾ إذا فرقتها، ويتهمك فى ذلك ، وهم المتهمون المأبونون ، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ؛ ولهذا إن ﴿أُعْطُوا منْهَا رَضُوا وإن لَّمْ يُعْطَوْا منْهَا إذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أى: يغضبون لأنفسهم. وقال قتادة فى قوله: ﴿ومنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَات﴾ يقول: ومنهم من يطعن عليك فى الصدقات. وهذا الذى ذكره قتادة شبيه بما رواه الشيخان عن أبى سعيد فى قصة ذى الخُوَيصرة ـ واسمه حُرْقوص ـ لما اعترض على النبى ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، فإنك لم تعدل. فقال: «لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل » . ثم قال رسول الله

ﷺ وقد رآه مقفيا : «إنه يخرج من ضِئْضِئ هذا قوم يحقرُ أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مُرُوق السهم من الرمِيَّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء» وذكر بقية الحديث (١) .

ثم قال تعالى مُنبِّها لهم على ما هو خير من ذلك لهم، فقال: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾** فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيما وسرا شريفا، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده، وهو قوله: **﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾** وكذلك الرغبة إلى الله وحده فى التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره.

ربع

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبى ﷺ ولمزهم إياه فى قَسْم الصدقات، بين تعالى أنه هو الذى قسمها وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه، ولم يكلْ قَسْمها إلى أحد غيره، فجزّاها لهؤلاء المذكورين .

وقد اختلف العلماء فى هذه الأصناف الثمانية : هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى ما أمكن منها ؟ على قولين: أحدهما: أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعى وجماعة. والثانى: أنه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويعطى جميعَ الصدقة مع وجود الباقين. وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم: عمر، وحذيفة، وابن عباس ، وسعيد بن جُبَيْر . قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم . وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ها هنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعاب الإعطاء.

وإنما قدم الفقراء ها هنا على البقية لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور، لشدة فاقتهم وحاجتهم ، وعند أبى حنيفة أن المسكين أسوأ حالا من الفقير . ورُوى عن ابن عباس وغير واحد: أن الفقير: هو المتعفف الذى لا يسأل الناس شيئا، والمسكين : هو الذى يسأل ويطوف ويتبع الناس. وقال قتادة: الفقير: من به زمانة، والمسكين: الصحيح الجسم . وقال عِكْرِمة: لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين ، إنما المساكين مساكين أهل الكتاب. ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية :

فأما الفقراء : فعن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ : « لا تحل الصدقة لغنىٍّ ولا لذى مِرَّة سَوِىّ » . رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى (٢) .

---

(١) البخارى (٣٦١٠) ، ومسلم (١٠٦٤/١٤٣، ١٤٤) .

(٢) المسند (٦٥٣٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (١٦٣٤) ، والترمذى (٦٥٢) وقال : « حسن » ، وجاء خطأ فى المطبوعة والمخطوطة الأزهرية أن الحديث من رواية « ابن عمر » .

وأما المساكين : فعن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس ، فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان » . قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : « الذى لا يجدُ غنًى يغنيه ، ولا يُفْطَنُ له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئا » . رواه البخارى ومسلم (١) .

وأما العاملون عليها:فهم الجباة والسعاة،يستحقون منها قسطا على ذلك،ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة،لما ثبت فى صحيح مسلم ـ عن عبد المطلب ابن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس » (٢) .

وأما المؤلفة قلوبهم: فأقسام: منهم من يعطى ليُسلم،كما أعطى النبى ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين ، كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن أمية قال: أعطانى رسول الله ﷺ يوم حنين، وإنه لأبغض الناس إلى ، فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلى . رواه مسلم والترمذى (٣) .

ومنهم من يُعطَى ليحسُن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم: مائة من الإبل،مائة من الإبل ، وقال: « إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه ، مخافة أن يَكُبَّه الله على وجهه فى نار جهنم » (٤) .ومنهم من يُعطَى لما يرجى من إسلام نظرائه. ومنهم من يُعطَى ليجبى الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حَوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد . وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبى ﷺ؟ فيه خلاف، فرُوى عن عمر، والشَّعبى وجماعة: أنهم لا يُعطَون بعده؛ لأن الله قد أعز الإسلام وأهله، ومكَّن لهم فى البلاد، وأذل لهم رقاب العباد. وقال آخرون: بل يُعطَون؛ لأنه ﷺ قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هَوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم.

وأما الرقاب : فرُوى عن الحسن البصرى ، ومقاتل وعمر بن عبد العزيز وغيرهم : أنهم المكاتَبون ، وهو قول الشافعى . وقال ابن عباس والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، وهو مذهب الإمام أحمد ومالك ، وإسحاق ، أى: إن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب، أو يشترى رقبة فيعتقها استقلالا. وقد ورد فى ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من مُعتقها حتى الفَرْج بالفرج، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٣٩] .وعن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ قال : « ثلاثة حق على الله عونهم : الغازى فى سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء، والناكح

(١) البخارى (١٤٧٩) ، ومسلم (١٠٣٩/١٠١) . (٢) مسلم (١٠٧٢/١٦٧) .
(٣) المسند (٦/ ٤٦٥)، ومسلم (٢٣١٣/ ٥٩)، والترمذى (٦٦٦) .
(٤) البخارى (١٤٧٨) .

الذي يريد العفاف » . رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود (١) .

وأما الغارمون: فهم أقسام: فمنهم من تحمّل حمالة أو ضمن دينا فلزمه فأجحف بماله، أو غرم فى أداء دينه أو فى معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم. والأصل فى هذا الباب حديث قَبِيصة بن مخارق الهلالى قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها». قال: ثم قال: «يا قَبِيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمَّل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش: أو قال: سدادا من عيش ـ ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قرابة قومه ، فيقولون : لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة، حتى يصيب قواما من عيش ـ أو قال سداداً من عيش ـ فما سواهن من المسألة سحت، يأكلها صاحبها سحتا». رواه مسلم (٢) .

وأما فى سبيل الله : فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم فى الديوان .

وكذلك ابن السبيل: وهو المسافر المجتاز فى بلد ليس معه شىء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال. وهكذا الحكم فيمن أنشأ سفرًا من بلده وليس معه شىء، فيعطى من مال الزكاة كفايته فى ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنىّ إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز فى سبيل الله، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغنى » (٣) .

وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾: أى حكما مقدراً بتقدير الله وفرْضِه وقَسْمه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله ويقوله ويشرعه ويحكم به ، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسولَ الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أى: من قال له شيئا صدقه فينا ، ومن حدثه صدقه ، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا. روى معناه عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أى: هو أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: ويصدق المؤمنين ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾

---

(١) المسند (٧٤١٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، والترمذى (١٦٥٥) وقال : « حديث حسن » ، وابن ماجة (٢٥١٨) .

(٢) مسلم (١٠٤٤/١٠٩) .

(٣) أبو داود (١٦٣٥)، وابن ماجه (١٨٤١)، وصححه الألبانى .

أى: وهو حجة على الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

قال قتادة فى قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الآية، قال: ذُكر لنا أن رجلا من المنافقين (١) قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقا، لهم شر من الحمير. قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشر من الحمار. قال: فسعى بها الرجل إلى النبى ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذى قلت؟» فجعل يلتعن، ويحلف بالله ما قال ذلك. وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صَدِّق الصادق وكذب الكاذب. فأنزل الله هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله، أى: شاقه وحاربه وخالفه، وكان فى حَدٍّ والله ورسوله فى حدٍّ ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ أى: مهاناً معذبا، و﴿ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أى: وهذا هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشى علينا سرنا هذا. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨] وقال فى هذه الآية: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أى: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية [محمد: ٢٩، ٣٠]؛ ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة «الفاضحة»، فاضحة المنافقين.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم وَديعة بن ثابت، أخو بنى أمية بن زيد، من بنى عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له: مُخَشِّن بن حُمَيِّر يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جِلاَد بنى

(١) سيأتى عند شرح الآية (٧٤) من هذه السورة أنه: الجلاس بن سويد بن الصامت.

الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا؟ والله لكأنا بكم غداً مُقرّنين فى الحبال، إرجافا وترهيبا للمؤمنين، فقال مُخشّن بن حُمَيّر: والله لوَددتُ أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإما نَنْفَلتُ أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنى ـ لعمار بن ياسر: «أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فاسألهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا ». فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة ابن ثابت، ورسول الله ﷺ واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحقَبها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال مُخشّن بن حُمَيّر: يا رسول الله، قعد بى اسمى واسم أبى. فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشّن بن حُمَيّر، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر .

وقوله: ﴿**لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾ أى: بهذا المقال الذى استهزأتم به ﴿**إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً**﴾ أى : لا يُعفَى عن جميعكم ، ولابد من عذاب بعضكم ﴿ **بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾ أى: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول تعالى منكرا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء ﴿**يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ**﴾ أى: عن الإنفاق فى سبيل الله ﴿**نَسُوا اللَّهَ**﴾ أى: نسوا ذكر الله ﴿**فَنَسِيَهُمْ**﴾ أى: عاملهم معاملة من نَسيهم، كقوله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** ﴾ [الجاثية: ٣٤]، ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ أى: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون فى طريق الضلالة.

وقوله: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ**﴾ أى : على هذا الصنيع الذى ذكر عنهم ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ أى: ماكثين فيها مخلدين، هم والكفار ﴿**هِيَ حَسْبُهُمْ**﴾ أى: كفايتهم فى العذاب ﴿**وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ** ﴾ أى: طردهم وأبعدهم ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**﴾.

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم

وقوله : ﴿ بِخَلاقِهِمْ﴾: قال الحسن البصرى: بدينهم . وقوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أى : فى الكذب والباطل ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى: بطلت مساعيهم، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾؛ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾

يقول تعالى واعظا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: ألم تُخْبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿ قَوْمِ نُوحٍ﴾ ، وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح، عليه السلام ﴿ وَعَادٍ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذبوا هـودا، عليـه السلام ، ﴿ وَثَمُودَ ﴾ كيف أخذتهـم الصيحة لما كذبوا صالحا ، عليه السلام ، وعقروا الناقة ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم نمروذ بن كنعان لعنه الله، ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب، عليه السلام، وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة، ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قوم لوط، وقد كانوا يسكنون فى مدائن، وقال فى الآية الأخرى: ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ [النجم: ٥٣] ، أى: الأمة المؤتفكة، وقيل: أم قراهم، وهى «سدوم». والغرض: أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبى الله لوطا، عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين. ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى: بالحجج والدلائل القاطعات ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أى: بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أى: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء فى الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه[١]. وفى الصحيح أيضا: «مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » [٢] .

وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٤] .

(١) البخارى (٤٨١) ، ومسلم (٢٥٨٥/٦٥) . (٢) البخارى (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦/٦٦) .

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: فيما أمر، وترك ما عنه زجر ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ من اتصف بهذه الصفات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أى: يعز من أطاعه ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ فى قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة فى جميع ما يفعله، تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم فى ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها أبدا ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أى: حسنة البناء، طيبة القرار، كما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن قيس الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » (١) . وفى الصحيحين أيضا، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقا على الله أن يدخله الجنة، هاجر فى سبيل الله، أو حبس فى أرضه التى ولد فيها ». قالوا: يارسول الله، أفلا نخبر الناس؟ قال: «إن فى الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن » (٢) .

وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ: « إن أهل الجنة ليتراءون الغُرفة فى الجنة، كما ترون الكوكب فى السماء » . أخرجاه فى الصحيحين (٣) .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا علىَّ، فإنه من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلَّت عليه الشفاعة يوم القيامة » (٤) .

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أى: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما روى الإمام مالك عن أبى سعيد الخُدْرى ، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله، عز وجل، يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير فى يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يارب، وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحدا من

(١) البخارى (٤٨٧٨) ، ومسلم (١٨٠/٢٩٦) .

(٢) البخارى (٧٤٢٣) ، ولم يعزه صاحب التحفة (١٠/٢٧٨) إلا للبخارى .

(٣) البخارى (٦٥٥٥) ، ومسلم (٢٨٣٠/١٠) . (٤) مسلم (٣٨٤/١١) .

خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يارب، وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا» أخرجاه (١) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار فى الدار الآخرة. عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف، سيف للمشركين: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة : ٥] ، وسيف لكفار أهل الكتاب: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] ، وسيف للمنافقين: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩] ، وسيف للبغاة: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] . وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير. وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم. وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، واغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم . وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم. وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم.

وقوله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾: قال قتادة: نزلت فى عبد الله ابن أبىّ، وذلك أنه اقتتل رجلان: جُهَنى وأنصارى، فعلا الجهنى على الأنصارى، فقال عبد الله للأنصار: ألا تنصروا أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمِّن كلبك يأكلك»، وقال: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] . فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبى ﷺ ، فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية .وقال عروة بن الزبير: نزلت هذه الآية فى الجُلاس بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مُصعب من قُباء، فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشر من حُمُرنا هذه التي نحن عليها. فقال مُصعَب: أما والله ـ يا عدو الله ـ لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت: فأتيت النبى ﷺ، وخفت أن ينزل فى القرآن، أو تصيبنى قارعة، أو أن أخلط بخطيئته، فقلت: يا رسول الله، أقبلت أنا والجلاس من قباء، فقال كذا وكذا، ولولا

(١) البخارى (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩/ ٩) .

مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبنى قارعة ما أخبرتك. قال: فدعا الجلاس فقال: «يا جلاس، أقلت الذى قاله مصعب ؟ » فحلف، فأنزل الله: ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ** ﴾ الآية.

وقوله : ﴿ **وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا** ﴾ قيل : أنزلت فى الجلاس بن سويد ، وذلك أنه همّ بقتل ابن امرأته حين قال : لأخبرن رسول الله ﷺ ، وقيل : فى عبد الله بن أبىّ ،همّ بقتل رسول الله ﷺ . وقال السدى : نزلت فى أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبى وإن لم يرض رسول الله ﷺ . وقد ورد أن نفرا من المنافقين هموا بالفتك بالنبى ﷺ وهو فى غزوة تبوك فى بعض تلك الليالى فى حال السير وكانوا بضعة عشر رجلا . قال الضحاك : ففيهم نزلت هذه الآية .وروى الإمام أحمد عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أمر مناديا فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد. فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله، وأقبل عمار،رضى الله عنه،يضرب وجوه الرواحل،فقال رسول الله ﷺ لحذيفة:«قد، قد» حتى هبط رسول الله ﷺ،نزل ورجع عمار، فقال:«ياعمار، هل عرفت القوم ؟ » فقال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون. قال: «هل تدرى ما أرادوا ؟ » قال: الله ورسوله أعلم.قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه». قال: فسار عمار رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال: أربعة عشر رجلاً . فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر.قال:فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا:والله ما سمعنا منادى رسول الله، وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (١) .

ويشهد لهذه القصة بالصحة، ما رواه مسلم: عن أبى الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة ؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك. قال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثنى عشر منهم حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادى رسول الله ﷺ، ولا علمنا بما أراد القوم. وقد كان في حرة يمشى، فقال: «إن الماء قليل، فلا يسبقنى إليه أحد»، فوجد قوما قد سبقوه، فلعنهم يومئذ (٢) . وما رواه مسلم أيضا عن عمار بن ياسر قال: أخبرنى حذيفة عن النبى ﷺ أنه قال: «فى أصحابى اثنا عشر منافقا، لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل فى سم الخياط : ثمانية تكفيكهم الدُّبَيْلَة : سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم » (٣) . ولهذا كان حذيفة يقال له:« صاحب السر ، الذى لا يعلمه غيره » أى : من

---

(١) المسند (٥/ ٤٥٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٦/ ١٩٥) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٢، ٣) مسلم (٢٧٧٩/ ١١) .

تعيين جماعة من المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره، والله أعلم.

وقوله تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أى: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سفارته (١) ، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به،كما قال للأنصار: «ألم أجدكم ضُلالا فهداكم الله بى؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى؟ وعالة فأغناكم الله بى ؟ » كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمَنّ (٢) . وهذه الصيغة تقال حيث لاذنب كما قال تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ الآية [البروج: ٨] .

ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أى: وإن يستمروا على طريقهم ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ أى: بالقتل والهم والغم ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أى: بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أى: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم،ولا يحصل لهم خيرا،ولا يدفع عنهم شراً.

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٧٥) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (٧٨) ﴾ ربع

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه: لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين. فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقا سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقَوْن الله، عز وجل، يوم القيامة، عياذًا بالله من ذلك. وقوله تعالى: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ الآية ، أى: أعقبهم النفاق فى قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم ، كما جاء فى الصحيحين ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » (٣) .

وقوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ الآية ، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها ، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى علام الغيوب، يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) ﴾

---

(١) فى المطبوعة : « سعادته » وهو تصحيف .

(٢) البخارى (٤٣٣٠) .

(٣) البخارى (٣٣) ، ومسلم (٥٩/١٠٧) .

وهذه أيضا من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم فى جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مراء، وإن جاء بشىء يسير قالوا: إن الله لغنى عن صدقة هذا. كما روى البخارى عن أبى مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشىء كثير، فقالوا: مرائى. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغنى عن صدقة هذا ، فنزلت ﴿ **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ** ﴾ الآية. وقد رواه مسلم (١) . وقال ابن عباس فى هذه الآية : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء. وقالوا: إن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع. وقال ابن إسحاق: كان المطوعون من المؤمنين فى الصدقات: عبد الرحمن بن عوف، تصدق بأربعة آلاف درهم، وعاصم بن عدى أخا بنى العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب فى الصدقات، وحض عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف، وقام عاصم فتصدق بمائة وسق من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء. وكان الذى تصدق بجهده: أبو عقيل أخو بنى أنيف الإراشى حليف بنى عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه فى الصدقة، فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغنى عن صاع أبى عَقيل.

وقوله: ﴿**فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ**﴾ : هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصارا للمؤمنين فى الدنيا ، وأعد للمنافقين فى الآخرة عذاباً أليماً ؛ لأن الجزاء من جنس العمل .

﴿ **ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ** (٨٠) ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار ، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم.

وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب فى أساليب كلامها تذكر السبعين فى مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها. وقيل: بل لها مفهوم، كما روى العوفى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «أسمع ربى قد رخص لى فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم » فقال الله من شدة غضبه عليهم : ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [المنافقون : ٦] .

---

(١) البخارى (١٤١٥)، ومسلم (١٠١٨/ ٧٢) .

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾

يقول تعالى ذامًا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه ﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أى: بعضهم لبعض: ﴿لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وذلك أن الخروج فى غزوة تبوك كان فى شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا : ﴿لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التى تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشد حرا من النار، كما روى الإمام مالك عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «نار بنى آدم التى يوقدون بها جزءٌ من سبعين جزءًا [من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافيةً. قال: «إنها فُضِّلت عليها بتسعة وستين جزءا] » أخرجاه فى الصحيحين (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد » . وهذا أيضا إسناده صحيح (٢) . وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار، يغلى دماغه من حرارة نعليه » (٣) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذابا رجل يجعل له نعلان يغلى منهما دماغه » . وهذا إسناد جيد قوى، رجاله على شرط مسلم، والله أعلم (٤) .

والأحاديث والآثار النبوية فى هذا كثيرة، وقال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى. نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ [المعارج : ١٥ ، ١٦] ، وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ. وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ. كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج : ١٩ ـ ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء : ٥٦].

وقال تعالى فى هذه الآية : ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أى: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول فى سبيل الله فى الحر، ليتقوا به حَرَّ جهنم، الذى هو أضعاف أضعاف هذا .

---

(١) الموطأ (٢/ ٩٩١)، والبخارى (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣/ ٣٠) ، وما بين المعقوفتين ليس فى المخطوطة ، وأثبتناه من المطبوعة والموطأ .

(٢) المسند (٧٣٢٣) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « هو بإسنادين أحدهما صحيح متصل ، والآخر مرسل ضعيف. . .» .

(٣) مسلم (٢١١/ ٣٦١) .

(٤) المسند (٢/ ٤٣٨) .

ثم قال تعالى جل جلاله ، متوعداً لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قال ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاؤوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله، عز وجل، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً. وكذا قال الحسن، وغيرهما .

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ (٨٣) ﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ أى : ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أى: معك إلى غزوة أخرى ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً ﴾ أى: تعزيراً لهم وعقوبة. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ الآية [الأنعام: ١١٠]، فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، كقوله فى عُمرة الحديبية : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ الآية [الفتح : ١٥]

وقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ قال ابن عباس: أى الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة .

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ (٨٤) ﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وألا يصلى على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أويدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه. وهذا حكم عام فى كل من عُرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية فى عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول رأس المنافقين، كما روى البخارى عن ابن عمر قال: لما توفى عبد الله جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفِّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلى عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه؟! فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرنى الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وسأزيده على السبعين». قال: إنه منافق ! قال: فصلى عليه رسولُ الله ﷺ . فأنزل الله ، عز وجل ، آية : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ . وكذا رواه مسلم (١) . ثم رواه البخارى عن عبيد الله ـ وهو ابن عمر العمرى ـ وقال: فصلى عليه، وصلينا معه، وأنزل الله : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ الآية (٢) .

---

(١) البخارى (٤٦٧٠) ، ومسلم (٢٧٧٤/ ٣) .
(٢) البخارى (٤٦٧٢) .

وهكذا رواه الإمام أحمد (١) .

وقد رُوى من حديث عمرَ بن الخطاب نفسه أيضاً بنحو من هذا، فروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لما تُوفى عبد الله بن [أُبَىّ دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه ، فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولتُ حتى قمت فى صدره ، فقلت : يا رسول الله، أعَلى عَدُوِّ الله عبد الله بن] أُبىّ القائل يوم كذا: كذا وكذا ـ يُعدِّد أيامه ـ قال: ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى إذا أكثرتُ عليه قال: «أخِّرْ عنى يا عمر، إنى خُيِّرت فاخترتُ، قد قيل لى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] ، لو أعلم أنى إن زدت على السبعين غُفر له لزدت». قال: ثم صلى عليه، ومشى معه، وقام على قبره حتى فُرغ منه ـ قال: فَعَجبٌ لى وجرَاءتى على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم! قال: فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ . فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره، حتى قبضه الله، عز وجل. وهكذا رواه الترمذى ، وقال: حسن صحيح (٢) . ورواه البخارى فذكر مثله وقال: «أخِّر عنى يا عمر». فلما أكثرت عليه قال: «إنى خُيِّرت فاخترتُ، ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين يُغْفَر(٣) له لزدت عليها». قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ الآية، فعجبتُ بعد من جُرْأتى على رسول الله ﷺ،ورسول الله ﷺ أعلم (٤). وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : أتى النبىّ ﷺ عبد الله بن أبىّ بعد ما أدخِل فى قبره ، فأمر به فأخرج ، ووضع على ركبتيه ، ونَفَث عليه من ريقه ، وألبسه قميصَه ،والله أعلم (٥) . وقد رواه أيضاً فى غير موضع مع مسلم والنسائى (٦) .

وقد ذكر بعض السلف : إنما كساه قميصه ؛ لأن عبد الله بن أُبىّ لما قَدم العباس طُلب له قميص، فلم يُوجَد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أُبىّ ؛ لأنه كان ضخماً طويلاً، ففعل ذلك به رسول الله ﷺ، مكافأة له، فالله أعلم .ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلى على أحد من المنافقين، ولا يقوم على قبره، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله ابن أبى قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعى لجنازة سأل عنها، فإن أثنى عليها خيراً قام فصلى عليها، وإن أثنى عليها غير ذلك قال لأهلها: «شأنكم بها» ، ولم يصل عليها (٧) .

---

(١) المسند (٤٦٨٠)، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (٩٥) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، والترمذى (٣٠٩٧) .

(٣) فى المطبوعة : « غفر » وفى المخطوطة : « لغفر » والمثبت من البخارى .

(٤) البخارى (٤٦٧١) .

(٥) البخارى (٥٧٩٥) .

(٦) مسلم (٢٧٧٣)، والنسائى فى السنن (٤/ ٣٧، ٣٨) .

(٧) المسند (٥/ ٢٩٩)، وقال الهيثمى فى الزوائد (٣/ ٦، ٧) : « رجاله رجال الصحيح » .

وكان عمر بن الخطاب لا يصلى على جنازة من جُهِل حاله، حتى يصلى عليها حذيفة بن اليمان؛ لأنه كان يعلم أعيان منافقين ، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ؛ ولهذا كان يقال له : «صاحب السر» الذى لا يعلمه غيره أى من الصحابة.

ولما نهى الله،عز وجل، عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيعُ من أكبر القُرُبات فى حق المؤمنين، فشرع ذلك ، وفى فعله الأجر الجزيل ، لما ثبت من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :« من شهد الجنازة حتى يصلّى عليها فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان ». قيل:وما القيراطان ؟ قال:« أصغرهما مثل أحد » (١) .

وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فقد روى أبو داود عن عثمان قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل » . انفرد بإخراجه أبو داود (٢) .

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) ﴾

قد تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة ، ولله الحمد (٣).

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) ﴾

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطَّوْل ،واستأذنوا الرسول فى القعود ، وقالوا : **﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾** ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود فى البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أَمْنٌ كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالى ، عنهم فى الآية الأخرى: **﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾** [الأحزاب: ١٩] ، أى : علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوى فى الأمن ، وفى الحرب أجبن شيء ، وقال تعالى فى الآية الأخرى: **﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ. طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾** الآية [محمد : ٢٠ ، ٢١] .

وقوله: **﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾** أى: بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول فى سبيل الله، **﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾** أى: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه .

---

(١) البخارى (١٣٢٥)، ومسلم (٩٤٥/٥٣) .
(٢) أبو داود (٣٢٢١)، وصححه الألبانى .
(٣) وهى الآية (٥٥) من هذه السورة .

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٨٩) ﴾

لما ذكر تعالى ذمّ المنافقين، بيّن ثناء المؤمنين، وما لهم فى آخرتهم، فقال: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم. وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أى: فى الدار الآخرة، فى جنات الفردوس والدرجات العلى.

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) ﴾

ثم بَيَّن تعالى حال ذَوى الأعذار فى ترك الجهاد، الذين جاؤوا رسولَ الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة. عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وَجَاءَ الْمُعْذِرُون» بالتخفيف، ويقول: هم أهل العذر. وهذا القول هو الأظهر فى معنى الآية؛ لأنه قال بعد هذا: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: لم يأتوا فيعتذروا. قال مجاهد وغيره: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ ﴾ قال: نفر من بنى غفار، جاؤوا فاعتذروا فلم يُعذرْهم الله. والقول الأول أظهر والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده: ﴿ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى: وقعد آخرون من الأعراب عن المجىء للاعتذار، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم، فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) ﴾

الجزء ١١

ثم بين تعالى الأعذار التى لا حَرَج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف فى التركيب الذى لا يستطيع معه الجلاد فى الجهاد، ومنه العمى والعَرَج ونحوهما، ولهذا بدأ به. ومنها ما هو عارض بسبب مرض عَنّ له فى بدنه، شغله عن الخروج فى سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهّز للحرب، فليس على هؤلاء حَرَج إذا قعدوا ونصحوا فى حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يُثَبِّطوهم، وهم

محسنون فى حالهم هذا ؛ ولهذا قال: ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وقال الأوزاعى: خرج الناس للاستسقاء، فقام فيهم بلال بن سعد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر، ألستم مقرين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم. فقال: اللهم، إنا نسمعك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ اللهم، وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا. ورفع يديه ورفعوا أيديهم فَسُقوا. وقال ابن عباس فى هذه الآية: وذلك أن رسول الله ﷺ أمرَ الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مُغَفَّل المزنى ، فقالوا : يا رسول الله، احملنا. فقال لهم : « والله لا أجد ما أحملكم عليه». فتولوا ولهم بكاء ، وعزّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا محملا. فلما رأى الله حرْصَهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم فى كتابه، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال ابن إسحاق فى سياق غزوة تبوك: ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ، وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بنى عمرو بن عوف: سالم بن عُمَير، وعلية بن زيد أخو بنى حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، أخو بنى مازن بن النجار ، وعمرو بن الحمام ابن الجموح أخو بنى سَلِمة، وعبد الله بن المغفَّل المزنى؛ وهَرَمِىّ بن عبد الله، أخو بنى واقف، وعِرْباض بن سارية الفزارى ، فاستحملوا رسول الله ﷺ ، وكانوا أهل حاجة، فقال: « لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون.

وروى ابن أبى حاتم عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ :« لقد خلفتم بالمدينة أقواما ، ما أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم واديا، ولا نلتم من عدو نيلا إلا وقد شَرَكوكم فى الأجر»، ثم قرأ: ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية. وأصل الحديث فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا ، ولا سرتم مسيرًا إلا وهم معكم » . قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : « نعم ، حبسهم العذر » (١) . وروى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد خلفتم بالمدينة رجالا ، ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً إلا شَرَكوكم فى الأجر ، حبسهم المرض » . رواه مسلم ، وابن ماجه (٢) .

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون فى القعود وهم أغنياء، وأنَّبهم فى رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف فى الرحال ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) البخارى (٢٨٣٩)، ومسلم (١٩١١/ ١٥٩) .

(٢) المسند (٣/ ٣٠٠) ، ومسلم (١٩١١/ ١٥٩) ، وابن ماجه (٢٧٦٥) .

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أى: لن نصدقكم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أى: قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أى: سيظهر أعمالكم للناس فى الدنيا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: فيخبركم بأعمالكم ، خيرها وشرها ، ويجزيكم عليها . ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنّبوهم ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ احتقارا لهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾أى: خُبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ فى آخرتهم ﴿جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: من الآثام والخطايا. وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ أى: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله.

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾

أخبر تعالى أن فى الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، وأجدر، أى: أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابى إلى زيد بن صَوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوَند، فقال الأعرابى: والله إن حديثك ليعجبنى، وإن يدك لتريبنى فقال زيد : ما يُريبك من يدى؟ إنها الشمال. فقال الأعرابى: والله ما أدرى، اليمين يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله: ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ .

ولما كانت الغلظة والجفاء فى أهل البوادى لم يبعث الله منهم رسولا، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ [يوسف:١٠٩] . روى مسلم عن عائشة قالت: قَدِم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا:

أتقبِّلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. قالوا: ولكنا والله ما نقبِّل. فقال رسول الله ﷺ: «وأمْلكُ أن كان الله نزع منكم الرحمة ؟ » (١) . وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أى: عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته.

وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أى: فى سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ أى: غرامة وخسارة ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أى: ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ أى: هى منعكسة عليهم والسَّوء دائرٌ عليهم ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

وقوله: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾: هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون فى سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ أى: الا إن ذلك حاصل لهم ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعدَّ لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم. قال الشعبى: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية. وقال أبو موسى الأشعرى ، والحسن ، وقتادة : هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: فيا ويل من أبغضهم أو سبَّهم أو أبغض أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيدُ الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعنى الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبى قحافة، رضى الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويَسبُّونهم، عياذاً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبُّون من رضى الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضى الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالى الله، ويعادون من يعادى الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

---

(١) مسلم (٢٣١٧/٦٤) .

يخبر تعالى رسوله ﷺ أن فى أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفى أهل المدينة أيضا منافقون ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أى: مرنوا واستمروا عليه: ومنه يقال: شيطان مَرِيد ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أى: عتا وتجبر.

وقوله: ﴿لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية [محمد : ٣٠] ؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين. وقد كان يعلم أن فى بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإن كان يراه صباحاً ومساء. وقال قتادة فى هذه الآية أنه قال : ما بال أقوام يتكلَّفون علم الناس ؟ فلان فى الجنة وفلان فى النار. فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدرى! لَعَمْرى أنت بنفسك(١) أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك. قال نبى الله نوح: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢] ، وقال نبى الله شعيب: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود : ٨٦] ، وقال الله لنبيه ﷺ: ﴿ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ .

وقال مجاهد فى قوله: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ يعنى: القتل والسِّباء ، وقال ـ فى رواية : بالجوع ، وعذاب القبر ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾. وقال ابن جُرَيج: عذابُ الدنيا، وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب النار. وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذابٌ فى الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله: ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا ﴾ [التوبة : ٨٥] ، فهذه المصائب لهم عذاب، وهى للمؤمنين أجر، وعذاب فى الآخرة فى النار ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال : النار .

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) ﴾

لما بَيَّن تعالى حالَ المنافقين المتخلفين عن الغَزاة رغبة عنها وتكذيباً وشكا، شرع فى بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلا إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى: أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربِّهم، ولهم أعمال أخَر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه. وهذه الآية ـ وإن كانت نزلت فى أناس معينين ـ إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخاطئين المخلطين المتلوثين . وقال ابن عباس: ﴿وَآخَرُونَ﴾: نزلت فى أبى لُبابة وجماعة من أصحابه ، تخلفوا عن غزوة تبوك ، فلما رجع النبى ﷺ من غزوته، ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أطلقهم النبى ﷺ، وعفا عنهم.

---

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : « بنصيبك » والمثبت من الطبرى (١١/٨) .

وروى البخارى عن سَمُرَة بن جُنْدَب : قال رسول الله ﷺ لنا: «أتانى الليلة آتيان فابتعثانى فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولَبِن فضة، فتلقانا رجال شَطْر من خلقهم كأحسن ما أنت رَاء، وشطر كأقبح ما أنت راء، قالا لهم: اذهبوا فَقَعُوا فى ذلك النهر. فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا فى أحسن صورة، قالا لى: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قالا: أما القوم الذين كانوا شَطر منهم حَسَن وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً، فتجاوز الله عنهم» (١) .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يأخُذَ من أموالهم صدقَة يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير فى «أموالهم» إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئا؛ ولهذا اعتقد بعض مانعى الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً بالرسول ﷺ ؛ ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الآية ، وقد رَدَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصديق أبو بكر وسائر الصحابة، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يُؤدونها إلى رسول الله ﷺ ، حتى قال الصديق : والله لو منعونى عِقالا ـ وفى رواية: عَنَاقاً ـ كانوا يُؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه (٢).

وقوله: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : ادع لهم واستغفر لهم ، كما رواه مسلم عن عبد الله بن أبى أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُتِىَ بصدقة قوم صَلَّى عليهم، فأتاه أبى بصدقته فقال: «اللهم صَل على آل أبى أوفى» (٣) .وقوله : ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾: قال ابن عباس: رحمة لهم. وقال قتادة : وقار ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أى: لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ أى: بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له. وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ : هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحطُّ الذنوب ويمحصها ويمحقها.

وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد. كما جاء بذلك الحديث، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم، كما يربى أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتَصير مثل أحد»، وتصديق ذلك فى كتاب الله، عز وجل : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ وقوله: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي

---

(١) البخارى (٤٦٧٤) . (٢) البخارى (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) .
(٣) مسلم (١٠٧٨ / ١٧٦) .

الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] (١) .

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾

قال مجاهد: هذا وَعيد من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرَضُ عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول ﷺ، وعلى المؤمنين . وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال: **﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾** [الحاقة: ١٨] ، وقال تعالى : **﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾** [الطارق: ٩] وقال : **﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾** [العاديات: ١٠] . وقال البخارى: قالت عائشة :إذا أعجبك حُسن عمل امرئ، فقل: **﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾** (٢) .

وقد ورد فى الحديث شبيه بهذا ، روى الإمام أحمد عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له ؟ فإن العامل يعمل زماناً من عمره ـ أو: بُرهَةً من دهره ـ بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة ، ثم يتحول فيعمل عملا سيئًا ، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ ، لو مات عليه دخل النار ، ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته » . قالوا : يا رسول الله وكيف يستعمله: قال: « يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه » . تفرد به أحمد من هذا الوجه (٣) .

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦) ﴾

قال ابن عباس وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا ، أى: عن التوبة ، وهم : مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك فى جملة من قعد ، كسلا وميلا إلى الدَّعَة والحفظ وطيب الثمار والظلال ، لا شكا ونفاقا ، فكانت منهم طائفة ربَطوا أنفسهم بالسوارى ، كما فعل أبو لُبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء ، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية ، وهى قوله : **﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾** الآية [التوبة : ١١٧] ، **﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾** الآية [التوبة : ١١٨] ، كما سيأتى بيانه فى حديث كعب بن مالك.

وقوله: **﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾** أى: هم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه **﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾** أى: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم فى أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

---

(١) الترمذى (٦٦٢) وقال : « حسن صحيح » .
(٢) البخارى معلقًا (الفتح ١٣/٥٠٣) .
(٣) المسند (٣/ ١٢٠) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/ ٢١١) : « رجاله رجال الصحيح » .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) ﴾

سبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مَقدَم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له : « أبو عامر الراهبُ » ، وكان قد تَنَصَّر فى الجاهلية وقرأ علْم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة فى الجاهلية، وله شرف فى الخزرج كبير. فلما قَدم رسولُ الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركى قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين .وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع فى إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح فى وجهه وكُسِرت ربَاعِيتُه اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه ﷺ .

وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبُّوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومى بعدى شَر. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرَّد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوة. وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول ﷺ فى ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل، ملك الروم، يستنصره على النبى ﷺ، فوعده ومَنَّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويُمنِّيهم أنه سيقدمَ بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له مَعقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كُتُبه ويكونَ مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبى ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم، ليحتجوا بصلاته، عليه السلام، فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله».

فلما قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحى بخبر مسجد الضِّرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم مسجد قباء، الذى أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هَدَمه قبل مقدمه المدينة،كما قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً﴾ :

وهم أناس من الأنصار، ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر، ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتى بجند من الروم وأخرج محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلى فيه وتدعو لنا بالبركة. فأنزل الله، عز وجل: ﴿ **لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ** ﴾ إلى: ﴿ **والله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ . وكذا رُوى عن سعيد بن جُبير، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وقتادة وغير واحد من العلماء. وقوله: ﴿**وَلَيَحْلِفُنَّ**﴾ أى: الذين بنوه ﴿**إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ**﴾ أى: ما أردناه ببنيانه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ أى: فيما قصدوا وفيما نوَوا، وإنما بنوه ضِرارا لمسجد قُباء، وكفرا بالله، وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق، الذى يقال له: «الراهب» لعنه الله. وقوله: ﴿**لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا**﴾: نهى من الله لرسوله ﷺ والأمة تَبَع له فى ذلك، عن أن يقوم فيه، أى: يصلى فيه أبدا.

ثم حثه على الصلاة فى مسجد قُباء الذى أسس من أول يوم بنائه على التقوى ، وهى طاعة الله ، وطاعة رسوله ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومَعقلا وموئلا للإسلام وأهله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ** ﴾ والسياق إنما هو فى معرض مسجد قباء ؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة فى مسجد قُباء كعُمرة » (١). وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ كان يزورُ مسجد قُباء راكباً وماشيا (٢) .

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف: ابن عباس وعن عُرْوَة بن الزبير، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، والشعبى ، والحسن البصرى ، وسعيد بن جبير، وقتادة. وقد ورد فى الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ الذى هو فى جوف المدينة، هو المسجد الذى أسس على التقوى. وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى؛ ولهذا روى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدى قال : اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ فى المسجد الذى أسِّسَ على التقوى، فقال أحدهما : هو مسجد رسول الله ﷺ . وقال الآخر : هو مسجد قباء .

وقد قال بأنه مسجد النبى ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروى عن عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب. واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿ **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**﴾: دليل على استحباب الصلاة فى المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين

---

(١) الترمذى (٣٢٤) وقال : « حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه (١٤١١) .
(٢) مسلم (١٣٩٩/٥١٥) .

على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابسة القاذورات.

وقال أبو العالية فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المطهرون من الذنوب. وقال الأعمش: التوبة من الذنب، والتطهير من الشرك.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾

يقول تعالى: لا يستوى من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما بنى هؤلاء بنيانهم ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أى: طرف حَفِيرة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: لا يصلح عمل المفسدين.

وقوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى: شكا ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقا فى قلوبهم، كما أشرب عابدو العجل حبه.

وقوله: ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: بموتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بأعمال خلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ فى مجازاتهم عنها، من خير وشر.

ربع ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)﴾

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها فى سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصرى وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم.

وقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أى: سواء قتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة؛ ولهذا جاء فى الصحيحين: «وتكفل الله لمن خرج فى سبيله، لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى، وتصديق برسلى، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة» (١).

(١) البخارى (٣١٢٣)، ومسلم (١٨٧٦/١٠٣).

وقوله: ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾: تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة ، وأنزله على رسله فى كُتُبه الكبار ، وهى التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ؛ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾

هذا نعتُ المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة ﴿ التَّائِبُونَ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش ﴿ الْعَابِدُونَ﴾ أى: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهى الأقوال والأفعال فمن أخَصّ الأقوال الحمد ؛ فلهذا قال : ﴿الْحَامِدُونَ ﴾، ومن أفضل الأعمال الصيامُ، وهو ترك الملاذّ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿ السَّائِحُونَ ﴾،كما وصف أزواج النبى ﷺ بذلك فى قوله تعالى: ﴿ سَائِحَاتٍ﴾ [التحريم: ٥]، أى: صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغى فعله ويجب تركُه، وهو حفظ حدود الله فى تحليله وتحريمه، علما وعملا، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله،والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.قال عبد الله بن مسعود: ﴿السَّائِحُونَ﴾: الصائمون. وكذا رُوى عن ابن عباس . وهكذا قال مجاهد،وسعيد بن جبير، وعطاء، وغيرهم: أن المراد بالسائحين: الصائمون. وهذا أصح الأقوال وأشهرها، وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد،وهو ما روى أبو داود فى سننه،من حديث أبى أمامة أن رجلا قال: يا رسول الله، ائذن لى فى السياحة. فقال النبى ﷺ: « سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » (١) .

وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة فى الأرض، والتفرد فى شواهق الجبال والكهوف والبرارى، فإن هذا ليس بمشروع إلا فى أيام الفتن والزلازل فى الدين، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غَنَم يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجبال، ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن »(٢).

وقال ابن عباس فى قوله : ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قال: القائمون بطاعة الله. وكذا قال الحسن البصرى،

---

(١) أبو داود (٢٤٨٦) ، وصححه الألبانى . (٢) البخارى (١٩) .

وعنه رواية: ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ قال: لفرائض الله، وفى رواية: القائمون على أمر الله.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾

روى الإمام أحمد عن ابن المسيب ، عن أبيه قال : لما حَضَرت أبا طالب الوفاة ، دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبى أمية، فقال: «أىْ عَمّ، قل: لا إله إلا الله. كلمة أحاجّ لك بها عند الله، عز وجل». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملَّة عبد المطلب ؟ [فقال: أنا على ملة عبد المطلب] . فقال النبى ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك». فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾، قال: ونزلت فيه: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : ٥٦] أخرجاه (١) .

وقال ابن عباس فى هذه الآية: كانوا يستغفرُون لهم ، حتى نزلت هذه الآية ، فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ، ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ، ثم أنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ ﴾ الآية. وقال سعيد بن جُبير : مات رجل يهودى وله ابن مسلم ، فلم يخرج معه ، فذكر ذلك لابن عباس فقال: فكان ينبغى له أن يمشى معه ويدفنه، ويدعو له بالصلاح ما دام حيا، فإذا مات وكَلَه إلى شأنه ثم قال: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ لم يَدْعُ. وشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره، عن على بن أبى طالب قال: لما مات أبو طالب قلت: يا رسول الله، إن عمك الشيخ الضال قد مات. قال: «اذهب فَوَاره ولا تُحْدثَنَّ شيئا حتى تأتينى » . فذكر تمام الحديث (٢) .

وقوله: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. وفى رواية: لما مات تبين له أنه عدو لله . وكذا قال مجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وغيرهم .

وقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ قال عبد الله بن مسعود :الأواه: الدَّعَّاء. وقال قتادة :إنه الرحيم، أى: بعباد الله. وقال ابن عباس : المؤمن التواب. وقال العوفى عنه: هو المؤمن بلسان الحبشة. وعن مجاهد: الأواه: الحفيظ الوجل، يذنب الذنب سرا، ثم يتوب منه سرا. قال ابن

(١) المسند (٥/ ٤٣٣) والبخارى (٤٦٧٥) ، ومسلم (٢٤/ ٣٩)، وما بين المعقوفتين من المطبوعة والمسند ، وليس فى المخطوطة .

(٢) أبو داود (٣٢١٤) ، وصححه الألبانى .

جرير: وأولى الأقوال قول من قال: إنَّه الدعَّاء، وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها أياه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليما عمن ظلمه وأناله مكروها؛ ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه فى قوله : ﴿ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم : ٤٧] ، فحلم عنه مع أذاه له، ودعا له واستغفر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قوما إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ الآية [فصلت: ١٧] . قال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضى عليكم فى استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهى عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهيته ذلك بالنهى عنه، ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهى، وأما من لم يُؤمَر ولم يُنْهَ فغير كائن مطيعا أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ : قال ابن جرير: هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين فى قتال المشركين وملوك الكفر ، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ، ولا يرهبوا من أعدائه فإنه لا ولى لهم من دون الله ، ولا نصير لهم سواه. وقال كعب الأحبار: ما من موضع خرمة إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها، يرفع علم ذلك إلى الله، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب ، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مُخّه مسيرة مائة عام.

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية فى غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها فى شدة من الأمر فى سنة مُجدبة وحر شديد، وعسر من الزاد والماء. وقال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لَهَبان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم. وروى

ابن جرير عن عمر بن الخطاب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فى قيظ شديد، فنزلنا منزلا، فأصابنا فيه عطَش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثه فيشربه، ويجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله عز وجل، قد عوّدك فى الدعاء خيرا، فادع لنا. قال: «تحب ذلك » ؟. قال: نعم! فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظَلَّت ثم سكبت ، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر (١) .

وقال ابن جرير فى قوله: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أى: من النفقة والظَّهر والزاد والماء ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أى: عن الحق ويشك فى دين رسول الله ﷺ ويرتاب، بالذى نالهم من المشقة والشدة فى سفره وغزوه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم، والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: سمعت كعب بن مالك يحدّث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزاة غزاها قط إلا فى غزاة تبوك، غير أنى كنت تخلفت فى غزاة بدر، ولم يعاتَب أحدٌ تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لى بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكرَ فى الناس منها وأشهر، وكان من خبرى حين تخلّفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلّما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ فى حَرٍّ شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز ، وعدوا كثيرًا ، فَجَلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وَجْهَه الذى يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ فقال كعب: فَقَلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى من الله، عز وجل، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل، وأنا إليها أصعر. فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض من جهازى شيئا، فأقول لنفسى: أنا قادر

---

(١) ابن جرير فى التفسير (١١/ ٤٠). ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ١٥٩) ، وقال : « حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجِدّ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازى شيئا، وقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه . فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا من جهازى. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل ذلك يَتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم ـ وليت أنّى فعلتُ ـ ثم لم يقدر ذلك لى، فطفقت إذا خرجتُ فى الناس بعد رسول الله ﷺ يحزننى ألا أرى إلا رجلا مَغْموصا عليه فى النفاق، أو رجلا ممن عذره الله، عز وجل، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: «مافعل كعب بن مالك؟» قال رجل من بنى سَلَمة: حبسه يارسول الله بُرْداه، والنظر فى عَطْفيه. فقال له معاذ بن جبل : بئسما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا ! فسكت رسول الله ﷺ قال كعب بن مالك: فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد تَوجَّه قافلا من تبوك حضرنى بَثّى ، فطفقت أتذكر الكَذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا؟ أستعين على ذلك كلّ ذى رأى من أهلى. فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلّ قادما، زاح عنى الباطل وعرفت أنى لم أنج منه بشىء أبدا. فأجمعتُ صدقه، وصَبَّح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ـ وكانوا بضعة وثمانين رجلا ـ فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلَّمت عليه تبسَّم تبسم المغضب، ثم قال لى: «تعال»، فجئت أمشى حتى جلستُ بين يديه، فقال لى: «ماخلَّفك، ألم تك قد اشتريت ظهرك»؟ قال: فقلت: يارسول الله، إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سَخَطه بعذر، لقد أعطيتُ جدَلا، ولكنه والله لقد علمتُ لئن حَدّثتك اليوم حديث كَذب ترضى به عنى، ليوشكن الله يُسْخطك على، ولئن حدثتك بصدق تَجدُ علَىّ فيه، إنى لأرجو أقرب عقبى ذلك من الله، عز وجل ، والله ما كان لى عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . قال: فقال رسول الله ﷺ:«أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك».فقمت وبادرنى رجال من بنى سلمة واتبعونى، فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عَجَزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤنّبونى حتى أردت أن أرجع فأُكذِّب نفسى: قال: ثم قلت لهم: هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا : نعم، لقيه معك رجلان، قالا ما قلتَ، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: فمن هما ؟ قالوا : مُرَارة بن الربيع العامرى، وهلال بن أمية الواقفى. فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا لى فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لى ـ قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا ـ أيها الثلاثة ـ من بين من تخلف عنه، فاجتنبَنَا الناس وتغيّروا لنا، حتى تنكرَتْ لى فى نفسى الأرضُ، فما هى بالأرض التى كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى

بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشَبّ القوم وأجلَدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، فلا يكلمنى أحد، وآتى رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول فى نفسى: حرّك شفتيه برد السلام علىّ أم لا؟ ثم أصلى قريبا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى، فإذا التفت نحوه أعرَض، حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مَشَيت حتى تسورت حائط أبى قتادة ـ وهو ابن عمى، وأحب الناس إلى ـ فسلمت عليه، فوالله ما رد على السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدُك الله: هل تعلم أنى أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدتُ فنشدته فسكت، فعدت فنشدته ، فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عيناى وتوليت حتى تسوّرت الجدار. فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نَبَطِىٌّ من أنباط الشام ، ممن قَدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال : فطفقَ الناس يشيرون له إلىّ، حتى جاء فدفع إلى كتابا من ملك غسان، وكنت كاتبا ، فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هَوان ولا مَضْيَعة، فالحق بنا نُواسكَ. قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء. قال: فتيممت به التنور فَسَجرته به، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتينى، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها. قال: وأرسل إلى صاحبىّ بمثل ذلك ، قال: فقلت لامرأتى: الحقى بأهلك، فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يارسول الله، إن هلالا شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربَنَّك» قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شىء، والله ما يزال يبكى من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا. قال: فقال لى بعض أهلى: لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وأما أدرى ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب؟ قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكَمُل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا : قد ضاقت على نفسى، وضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صارخا أوفى على جبل سَلْع يقول بأعلى صوته: ياكعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا ، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحبىّ مبشرون، وركض إلى رجُل فرساً، وسعى ساع من أسلم وأوفى على جبل، فكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى، نزعت له ثوبى ، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ ، يلقانى الناس فوجا فوجا يهنئونى بالتوبة ، يقولون : لِيَهْنك توبة الله عليك . حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس فى المسجد

حوله الناس، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يُهرول، حتى صافحنى وهنَّأنى، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرُق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك». قال: قلت: أمن عندك يارسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله». قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، حتى يعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت: يارسول الله، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك». قال: فقلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر. وقلت: يا رسول الله ، إنما نجانى الله بالصدق ، وإن من توبتى ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت. قال : فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى الله تعالى، والله ما تعمدت كَذْبَةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى. قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ . قال كعب : فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظمَ فى نفسى من صدقى رسولَ الله ﷺ يومئذ ألا أكون كَذَبْتُه فأهلك كما هلك الذين كَذَبوه ؛ فإن الله تعالى قال للذين كَذَبوه حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦]. قال: وكنا خُلّفنا ـ أيها الثلاثة ـ عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسولُ الله أمرَنا، حتى قضى الله فيه، فذلك قال الله عز وجل : ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾، وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذى ذكر مما خُلِّفنا بتَخَلُّفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه. رواه البخارى ومسلم بنحوه (١) .

ولما ذكر تعالى ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، من هجر المسلمين إياهم نحوا من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، أى: مع سعتها، فسدّدت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ فى تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، أى: اصدُقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم، ومخرجا،

(١) المسند (٣/٤٥٦ ـ ٤٥٩) ، والبخارى (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩/ ٥٣) .

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذابا » . أخرجاه فى الصحيحين (١) .وعن عبد الله بن عمر: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: مع محمد ﷺ وأصحابه. وقال الضحاك: مع أبى بكر وعمر وأصحابهما . وقال الحسن البصرى: إن أردت أن تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد فى الدنيا، والكف عن أهل الملة.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) ﴾

يعاتب تعالى المتخلّفين عن رسول الله ﷺ فى غزوة تَبُوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نَقَصُوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم ﴿ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو: العطش ﴿وَلا نَصَبٌ﴾ وهو: التعب ﴿وَلا مَخْمَصَةٌ﴾ وهى: المجاعة ﴿وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أى: ينزلون منزلا يُرهبُ عدوهم ﴿وَلا يَنَالُونَ ﴾ منه ظفراً وغلبة عليه ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُم ﴾ بهذه الأعمال التى ليست داخلة تحت قُدَرهم، وإنما هى ناشئة عن أفعالهم، أعمالا صالحة وثوابا جزيلا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾

يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة فى سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً﴾ أى: قليلا ولا كثيرا ﴿وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أى: فى السير إلى الأعداء ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل «به» لأن هذه أفعال صادرة عنهم؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ﴾ الآية: ما ازداد قوم من أهليهم فى سبيل الله بعدا إلا ازدادوا من الله قربا.

ربع ﴿ ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾

(١) المسند (٣٦٣٨) ، والبخارى (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧/١٠٥) .

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نَفير الأحياء مع الرسول ﷺ فى غزوة تبوك ، فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انفرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ [التوبة:٤١]، وقال: ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ ﴾ الآية [التوبة: ١٢٠] ، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية. وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحى عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو. فيجتمع لهم الأمران فى هذا: النفير المعين وبعده، صلوات الله وسلامه عليه، تكون الطائفة النافرة من الحى إما للتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء.

وقال ابن عباس : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا النبى ﷺ وحده، ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعنى: عصبة، يعنى: السرايا، ولا يسيروا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبى ﷺ، قالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنا، وقد تعلمناه. فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية فى أناس من أصحاب محمد ﷺ، خرجوا فى البوادى، فأصابوا من الناس معروفا، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا. فوجدوا فى أنفسهم من ذلك تحرجا، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبى ﷺ، فقال الله، عز وجل: ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يبتغون الخير ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ وليستمعوا ما فى الناس، وما أنزل الله بعدهم ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ .

وقال قتادة فى هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش، أمرهم الله ألا يُعرُّوا نبيَّه ﷺ، وتقيم طائفة مع رسول الله تتفقه فى الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم. وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [التوبة:٣٩] ، و﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ الآية [التوبة: ١٢٠]، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه. وقد كان ناس من أصحاب النبى ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ الآية ، ونزلت: ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ الآية [الشورى: ١٦] .وقال الحسن البصرى فى الآية : ليتفقه الذين خرجوا، بما يردهم الله من الظهور على المشركين، والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين فى جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة ، والطائف ، واليمن ، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ، ودخل الناس من سائر أحياء العرب فى دين الله أفواجا، شرع فى قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجدْب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته ﷺ . ثم اشتغل فى السنة العاشرة بحجة الوداع. ثم عاجلته المنية ﷺ بعد الحجة بأحد وثمانين يوما، فاختاره الله لما عنده.

وقام بالأمر بعده خليفته أبو بكر رضى الله عنه ، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل ، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد ، وثبت الدعائم ، ورد شارد الدين وهو راغم. ورد أهل الردة إلى الإسلام ، وبين الحق لمن جهله ، ثم شرع فى تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم وإلى الفرس ، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنفس كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وكان تمام الأمر على يدى ولى عهده الفاروق عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً. وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقُربا. ففرقها على الوجه الشرعى، والسبيل المرضى. ثم لما مات شهيداً أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان ابن عفان ، فكسا الإسلام بجلاله رياسة حلة سابغة. وأمدت فى سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، وظهر الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها، فكلما علَوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أى: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم فى قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقا لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كما قال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] ، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣، والتحريم : ٩] .

وقوله: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه . وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة، فى غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء فى سَفَال وخسار. ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء فى أطراف البلاد، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله، سبحانه، الأمر من قبل ومن بعد. فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه،

وبقدر ما فيه من ولاية الله.

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ
رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ (١٢٥) ﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾؟ أى: يقول بعضهم لبعض : أيكم زادته هذه السورة إيمانا؟ قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾. وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد. ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أى: زادتهم شكا إلى شكهم، وريبا إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] ، وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدى القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم، كما أن سيئ المزاج لو غذى بما غذى به لا يزيده إلا خبالا ونقصا.

﴿ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ
وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم
مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ (١٢٧) ﴾

يقول تعالى: أولا يرى هؤلاء المنافقون (١) ﴿ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أى: يختبرون ﴿ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أى: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولاهم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم. قال مجاهد: يختبرون بالسَّنة والجوع. وقال قتادة: بالغزو فى السنة مرة أو مرتين.

وقوله: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أى: يلتفتوا، ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ أى : تولوا عن الحق وانصرفوا عنه ، وهذا حالهم فى الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يقيمونه ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ. فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١] ، وقال تعالى: ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ. عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٦، ٣٧] ، أى: ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يمينا وشمالا، هروبا من الحق، وذهابا إلى الباطل.

وقوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ كقوله : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ﴿بِأَنَّهُم

---

(١) فى المخطوطة : « المنافقين » وهى خطأ .

﴿قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ أى: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم فى شده عنه ونفور منه ، فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾

يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم، أى: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾** [البقرة: ١٢٩] ، وقال تعالى: **﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾** [آل عمران: ١٦٤] ، وقال تعالى: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾** أى: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولا منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته .

وقوله : **﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾** أى : يعز عليه الشىء الذى يعْنَتُ أمته ويشق عليها وفى الصحيح: «إن هذا الدين يسر » (١) ، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه. **﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾** أى: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوى والأخروى إليكم. روى الطبرانى عن أبى الطفيل، عن أبى ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى الهواء إلا وهو يذكرنا منه علما . قال: وقال ﷺ: «مابقى شىء يُقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم » (٢) .

وقوله: **﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** كما قال تعالى: **﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ. وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾** [الشعراء: ٢١٥ ـ ٢١٧] .

وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة، وهى قوله تعالى: **﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾** أى: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة **﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾** أى: الله كافيَّ، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: **﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾** [المزمل:٩] . **﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾** أى: هو مالك كل شىء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذى هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شىء، وقَدَره نافذ فى كل شىء، وهو على كل شىء وكيل.

آخر سورة براءة ، والحمد لله وحده

---

(١) البخارى (٣٩) .

(٢) الطبرانى فى الكبير (٢/ ١٥٥) ، ١٥٦ (١٦٤٧) وقال الهيثمى فى الزوائد ٨/ ٢٦٦، ٢٦٧ : « رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى وهو ثقة » .